1re. Année, No. 18

Dimanche, 1-10-1933

عبد الفتاح عبد العال بالمدارس الأميرية

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

....

الادارة
بشارع الباحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون ٤٢٩٩٢

بدل الاشتراك

٣٠ عن سنة كاملة
٢٠ عن ستة شهور
٦٠ عن سنة فى الخارج
١ ثمن العدد الواحد

....

تصدر مؤقتاً
فى أول كل شهر ونصفه

العدد الثامن عشر «القاهرة فى يوم الأحد ١١ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٢ — أول أكتوبر سنة ١٩٣٣» السنة الأولى

فهرس العدد

فرعونيون وعرب!

عفا الله عن كتابنا الصحفيين ! ما أقدرهم على أن يثيروا عاصفة من غير ريح ، ويبعثوا حربا من غير جند ! !

حلا لبعضهم ذات يوم أن يكون بيزنطيا يجادل فى الدجاجة والبيضة أيتهما أصل الأخرى ! فقال على هذا القياس : أفرعونيون نحن أم عرب ؟ أنقيم ثقافتنا على الفرعونية أم تقيمها على العربية ؟ !

نعم قالوا ذلك القول وجادلوا فيه جدال من أُعطى أزمَّة النفوس وأعنة الاهواء يقول لها كونى فرعونية فتكون ! أو كونى عربية فتكون ! ثم اشتهر بالرأى الفرعونى اثنان أو ثلاثة من رجال الجدل وساسة الكلام فبسطوه فى المقالات ، وأيدوه بالمناظرات ، ورددوه فى المحادثات ، حتى خال بنو الاعمام فى العراق والشام أن الأمر جد ، وان الفكرة عقيدة ، وان ثلاثة من الكتاب أمة ، وأن مصر رأس البلاد العربية قد جعلت المآذن مِسلاَّت ، والمساجد معابد ، والكنائس هياكل ، والعلماء كهنة !

مهلا بنى قومنا لا تعتدوا بشهوة الجدل على الحق ، ورويداً بنى عمنا لا تسيئوا بقسوة الظن الى القرابة ! إن الأصول والأنساب عرضة للزمن والطبيعة : تواشج بينها القرون ، وتفعل فيها الأجواء حتى يصبح تحليلها وتمييزها وراء العلم وفوق الطاقة . فاذا قلنا فلان عربى أو فرنسى أو تركى فانما

نعني بهذه النسبة انطباعه بالخصائص الثقافية والاجتماعية لهذا الشعب كاللغة والأدب والأخلاق والهوى والدين . فبديع الزمان عربي وأصله فارسي ، وروسو فرنسي وأصله سويسري ، والأمير فلان تركي وأصله مصري ، لأن كلا من هؤلاء الثلاثة أصبح جزءا من شعبه ، ينطق بلسانه ويفكر بعقله ويشعر بقلبه

فبأي شيء من هذا يتمارى إخواننا الجدليون وهم لو كشفوا في أنفسهم عن مصادر الفكر ومنابع الشعور ومواقع الالهام لرأوا الروح العربية تشرق في قلوبهم دينا ، وتسرى في دمائهم أدبا ، وتجرى على ألسنتهم لغة ، وتفيض في عواطفهم كرامة.

لا نريد أن نحاجهم بما قرره المحدثون من العلماء من أن المصرية الجاهلية تنزع بعرق الى العربية الجاهلية ، فان هذا الحِجاج ينقطع فيه النفَس ولا ينقطع به الجدل . . . وكفى بالواقع المشهود دليلا وحجة . هذه مصر الحاضرة تقوم على ثلاثة عشر قرناً وثلثا من التاريخ العربي ، نسخت ما قبلها كما تنسخ الشمس الضاحية سوابغ الظلال . . وذلك هو ماضي مصر الحي الذي يصيح في الدم ، ويثور في الأعصاب ، ويدفع بالحاضر إلى مستقبل ثابت الأس شامخ الذرى عزيز الدعائم

أزهقوا إن استطعتم هذه الروح ، وامحوا ولو بالفرض هذا الماضي ، ثم انظروا ماذا يبقى في يد الزمان من مصر . هل يبقى غير اشلاء من بقايا السوط ، وأنضاء من ضحايا الجور . وأشباح طائفة ترتل « كتاب الأموات » ، وجباه ضارعة تسجد للصخور وتعنو للعجاوات ، وقبور ذهبية الأحشاء ابتلعت الدور حتى زحمت بانتفاخها الأرض ، وفنون خرافية شغلها الموت حتى أغفلت الدنيا وأنكرت الحياة ؟ وهل ذلك إلا الماضي الأبعد الذي تريدون أن يكون قاعدة لمصر الحديثة تصور بألوانه وتشدو بألحانه وتحيا أخيراً بروحه ؟ ولكن أين تحسون بالله هذه الروح ؟ إن أرواح الشعوب لا تنتقل الى الأعقاب إلا في نتاج العقول والقرائح ، فهل كشفتم بجانب الهياكل الموحشة والقبور الصم مكتبة واحدة تحدثكم عن فلسفة كفلسفة اليونان ، وتشريع كتشريع الرومان وشعر كشعر العرب ؟

أم الحق أن مصر القديمة دفين فنيت روحه مع الآلهة ، وصحائف موت ذهب سرها مع الكهنة ، والخامد لا يبعث حياة والجامد لا يلد حركة ؟ !

لا تستطيع مصر الاسلامية إلا أن تكون فصلا من كتاب المجد العربي ، لأنها لا تجد مدداً لحيويتها ، ولا سندا لقوتها ، ولا أساساً لثقافتها الا في رسالة العرب . أمّا أنْ يكون لأدبها طابعُهُ ، ولفنها لونُهُ ، فذلك قانون الطبيعة ولا شأن لمينا ولا ليَعرُب فيه : لأن الآداب والفنون مِلاكها الخيال ، والخيال غذاؤه الحس ، والحس موضوعه البيئة ، والبيئة عمل من أعمال الطبيعة يختلف باختلافها في كل قطر . فاذا لم يوفق الفنان بين عمله وعمل الطبيعة ، ويؤلف بين روحه وروح البيئة ، فاته (اللون المحلي) وهو شرط جوهري لصدق الأسلوب وسلامة الصورة . وقديما كان لون الأدب في الحجاز غيره في نجد ، وفي العراق غيره في الشام . وفي مصر غيره في الأندلس ، دون أن يسبق هذا التغاير دعوة ولا أن يلحق به أثر !

انشروا ما ضَمِنت القبور من رفات الفراعين ، واستقطروا من الصخور الصلاب اخبار الهالكين ، وغالبوا البلَى على ما بقى في يديه من اكفان الماضي الرميم ، ثم تحدثوا وأطيلوا الحديث عن ضخامة الآثار وعظمة النيل وجمال الوادي وحال الشعب ، ولكن اذكروا دائما أن الروح التي تنفخونها في مومياء فرعون هي روح عمرو ، وأن اللسان الذي تنشرون به مجد مصر هو لسان مُضَر ، وان القيثار الذي توقعون عليه الحان النيل هو قيثار امرىء القيس ، وان آثار العرب المعنوية التي لا تزال تعمر الصدور وتملأ السطور وتغذى العالم ، هي أدعى الى الفخر وأبقى على الدهر ، وأجدى على الناس ، من صفائح الذهب وجنادل الحجارة

انما تتفاضل الامم بما قدمت للخليقة من خير ، وتتفاوت الاعمال بما أجدت على الانسان من نفع . أليس (الخزان) خيرا من الكرنك ، والأزهر أفضل من الاهرام ، ودار الكتب أنفس من دار الآثار ؟

وبعد فان ثقافتنا الحديثة انما تقوم في روحها على الاسلام والمسيحية ، وفي أدبها على الآداب العربية والغربية ، وفي علمها على القرائح الأوربية الخالصة . أما ثقافة (البردى) فليس يربطها بمصر العربية رباط ، لا بالمسلمين ولا بالاقباط

احمد حسن الزيات

عـــدل السماء

للأستاذ حسن جلال
القاضى بالمحاكم الأهلية

الفرق بين عدل السماء وعدل الأرض هو بعينه فرق ما بين السماء والأرض . . !

فأما أهل الأرض فقد سلك كل منهم طريقا لتحقيق العدل فى بلاده . فهذه دولة محا كمها تطبق قوانينها على الناس كما هو الحال فى فرنسا وفى مصر . وتلك دولة أخرى تجرى محا كمها على سنن الأحكام التى أصدرتها المحاكم من قبلها كما هو الحال فى انجلترا . وهؤلاء قوم لهم عادات مقررة وعرف موروث فتنعقد مجالسهم كلما دعا الحال لتحكيم تلك العادات وذلك العرف بين المتقاضين ، وهذا هو شأن العرب المقيمين فى مناطق الحدود المصرية . وأولئك قوم غيرهم يلجأون الى السحرة والكهان للفصل فى قضاياهم كما هو الحال عند بعض قبائل افريقيا الوسطى . . .

وكل هذه الهيئات انما تجرى على النظام الذى اختارته ، لأنها تعتقد أنه اكفل الطرق للوصول الى العدل . وليس من شك فى أن كلا من هذه النظم له نقائصه . ولكنه على كل حال آخر ما وصلت اليه الهيئة التى اختارته فى سبيل تحقيق العدالة بين أفرادها

والخلاصة أن الانسان لم يصل بعد إلى درجة الكمال فى تشريعه ، وأنه بحاجة الى موالاة الجهود فى سبيل بلوغ هذا الكمال .

* * *

والسؤال الذى يجيش بالنفس بعد هذه المقدمة هو :

هل يستفاد مما سبق أن الظلم يملأ هذا العالم . وأن العدالة فيه مستحيلة التحقيق ؟

الواقع غير ذلك ! بل ان المشاهد فى معظم الأحوال أن العداله محققة فى هذه الدنيا . وأن الناس راضون عن طريقة توزيعها بينهم . ومهما يكن من أمر الحالات التى يدل ظاهرها أحيانا على أنها لم تتوفر فيها عناصر العدالة فان (عدل السماء) غلاب . وهو الذى يتولى فى هذه الحالات إقامة الميزان بين الناس . وما ربك بظلام للعبيد !

* * *

حدثنى أحد الزملاء المحامين قال :

وقعت جناية قتل فى البلدة التى أعمل فيها ، واتُّهم فى تلك الجناية شاب من خيرة شبانها . ينتمى الى أسرة من كبار الأسر فيها . فجاءنى عمه يوكلنى بالدفاع عنه . وأقسم لى أغلظ الايمان أن ابن أخيه برىء . وأن أهل القتيل اتهموه لضغينة قديمة بينهم وبين أسرته ، وأن القاتل معروف فى البلد . وأن أهل القتيل هم أول من يعرفه . ولكنهم إمعانا فى الانتقام يريدون أن يأخذوا فى قتيلهم رجلين . . واحداً يأخذه لهم القضاء بحكمه . وواحداً يقتصون منه بأنفسهم كما هى العادة عند معظم أهل الصعيد . ولما كان القاتل الحقيقى هينا عليهم فانهم استبقوه لأنفسهم وتركوا أمر هذا الشاب للقضاء .

قال صاحبى : فلما وقفت على هذه المعلومات حفزنى الأمر الى مضاعفة العناية بالقضية . فاطلعت على أوراقها بكل دقة ويقظة ، فوجدت أدلة الاتهام فيها قوية ناطقة . ورأيت جملة من شهود الأثبات تطابقت أقوالهم فى محاضر التحقيق ، وقد عجز المحقق عن أن يحدث ثغرة فيهم تدل على تلفيقهم . اذ قرروا جميعاً أنهم رأوا المتهم وهو يطلق النار على القتيل . وأنهم شاهدوه عقب ذلك وهو يفر . ووصفوا اتجاه سيره أدق وصف ، ونوقشوا فى ألوان ملابسه وفى نوع سلاحه وفى غير ذلك من التفصيلات فكانت أقوالهم دائما واحدة لا تحريف فيها ولا تبديل !

أزاء ذلك استولى اليأس على صاحبنا المحامى ، ولم يبق له من القوة على الدفاع إلا قوة يقينه هو بأن المتهم برىء بناء على تأكيدات عمه . .

وحل موعد المحاكمة فتوجه إلى المحكمة . ونودى على القضية ، وسئل المتهم عن تهمته فأنكرها بكل شدة . وسمعت أقوال الشهود فأذا هى نفس أقوالهم فى التحقيقات . وترافعت النيابة فقالت إن القضية لا تحتاج إلى نور جديد وأن أقوال الشهود قاطعة فى الأدانة . ونهض الدفاع وحاول أن يثير

ما استطاع من الشكوك حول موقف المتهم، ولكن الحكم صدر في النهاية بمعاقبة المتهم بالأشغال الشاقة المؤبدة . . .

***

عاد المحامي في ذلك اليوم إلى مكتبه مكتئبا حزينا على ما حل بهذا الفتى التعس. ولقيه هناك عمه فألفاه على هذه الحال. فابتدره المحامي بالسؤال عن كيفية اتفاق الشهود على كل تلك التفصيلات التي شهدوا بها إن صح ما يدعيه هو من أنهم ملفقون.

فقال له الرجل: إن الشهود قد شاهدوا القاتل الحقيقي فعلا وهو يرتكب جريمته. واتفقوا فيما بينهم لارتباطهم بأسرة القتيل) على أن يرووا كل ما شاهدوه ولكن منسوبا إلى المتهم الحالي بدل أن ينسبوه إلى فاعله الأصلي. ومن هنا جاءت أقوالهم كلها متطابقة، لأنهم إنما يقررون من الوقائع ما وقع فعلا تحت سمعهم وبصرهم!

***

وهنا يقول صاحبي إن ثورة عنيفة أدركت نفسه ضد هؤلاء المزورين الذين تمكنوا من مخادعة القضاء الى هذا الحد، والتوسل به إلى إنزال العقاب الذي يشاءون على من يشاءون. ولكنه آنس شيئاً من استسلام غير عادي يغلب على نفس عم المتهم، بينما هو يعاني من ثورة النفس شدتها وغليانها. فلم يكتم صاحبه ما يجول بخاطره. وهنا رفع عم الفتى رأسه وقال: الحق يا أستاذ ان الفتى يستحق العقاب الذي أنزله به القضاء فسأله المحامي في دهشة:

— وكيف يتفق ذلك مع ما قدرته الآن من أنه لا يد له في هذه الجريمة؟ فقال الرجل:

إنه وإن كان لا يد له حقيقة في هذه الجريمة إلا أنه في الواقع هو الذي قتل (فلانا) من أهل البلدة المجاورة لبلدتنا، ولكنه ظل امره مجهولا من رجال الحفظ حتى هذه الساعة! فأن كان القضاء قد أدركه اليوم فإنما هو (عدل السماء) قد حققته قدرة الله الذي هو من وراء كل شيء محيط، وبما تخفى كل نفس عليم!

في الخريف

كل شيء في الكون رانَ وقرّا ... وسرى في جوانح النفس سحرا
أسفر الجو وانجلت صفحة الأفـ ... ق وفاحت مناكب الأرض نشرا
في ربوع يطول عمرُ شتاها ... إذ يوافي ويقصُر الزهر عمرا
نحمد الشمس يوم تطلع فيها ... بضياء، ونحمد الله عشرا
رفّ فيها الخريف حسنا وطيبا ... فتسامى على الربيع وأزرى
نفضت نومها الحياة وقامت ... بعد طول الحجاب ترفع سترا
أبرزتْ من جمالها وحُلاها ... كلّ سر فما تُكتّم سرّا
ذهبتْ تنثر الجمال فلم تَسـ ... تثنِ في الماء أو على الأرض شبرا
نثرتْهُ بلا نظامٍ فأرضى الـ ... فنّ فوضى وأعجب العين نثرا
أودعت سحرها هواء وحصبا ... ء وماء يسري وعشباً وصخرا
يسرح الطرف حيث شاء فما يسـ ... رح إلا من فتنة صوب أخرى
مزج حسنٍ ورقّة وبهاءٍ ... ألفته لوناً وضوءاً وعطرا
هو في العين ما أرقّ وأندا ... ه وفي الصدر ما ألذّ وأطرى
ترتوي الروح منه نهلاً وعلاً ... فهي نشوى أنّى تنقّل سكرى
كست الأرض خضرة وتغشّت ربوة ربوة وغوراً فغورا
فزكا النبت في تلاع وقيعا ... ن توالى في الأفق طيّا ونشرا
راق منه ما تهادى على الأر ... ض نديّا وما تشامخ كبرا
وذكاء وسط الفضاء توارى ... خلف غيم يمرّ في الجو مرّا
ثم تبدو فتغمر الكون إينا ... سًا إذا الغيم عن سناها تفرّى
في سماء نقية تأخذ العيـ ... ن اغترافاً وتفعم الكون بشرا
معرض النور سرت فيه الهوينى ... مطلقاً في الخيال نفسي حيرى
تتملّى بدائع الكون أو تنـ ... ظم في صفحة الخواطر شعرا
عند نهر عذب التسلسل ما تا ... بعته بالمسير إلا اسبطرّا
حفّه العشب كاسياً ضفّتيه ... مطلعاً حوله قتاداً وزهرا
أرسل العين تجتلي الحسن صفواً ... أو تقصّى من سالف العمر ذكرا
فهي في مسرح الطبيعة جذلى ... آنة أو مع التذكر عبرى
ورفيقي في السير سفر بكفّي ... لم أطالع مما يحدّث سطرا
من تهادى سفر الطبيعة مبسو ... طاً إليه فكيف يحفل سفرا؟

اكستر — انجلترا

فخري أبو السعود

ثروة تضيع

للأستاذ أحمد أمين

هى ما خلفها لنا الجيل الماضى القريب، وتسلمناها منه يداً بيد، ولست أعنى ما خلفه من شعر ونثر وكتب فى مختلف العلوم والآداب، فهذه قد حفظناها ونشرنا بعضها وعنينا بها الى حد ما، إنما أعنى ما صدر عنهم من قول وعمل، وما كان يدور فى مجالسهم من حديث ظريف أو نافع، وما وقع لهم من أحداث، وكيف تصرفوا فيها، وأنماط مجالسهم وأحاديثهم ومجتمعاتهم، ونحو ذلك مما يدلنا على حقيقة شخصيتهم، ويفيدنا فى تعرف مجتمعهم، ويعين المؤرخ بعدُ على رسم صورة صحيحة صادقة لحال المجتمع فى ذلك العصر وقدر نابغيه

كان لعلى باشا مبارك «صالون» كبير فى بيته بشارع المظفر يغشاه عظماء الرجال والشبان وطلبة المدارس. وكان يدور فيه كل ليلة من ألوان الحديث وشتى المقترحات ماينبغى أن يسجل، ومثل ذلك فى منزل عبد الله باشا فكرى ومحمد باشا قدرى ورفاعه بك وأمثالهم، وكان نوع أحاديثهم ومباحثاتهم شيقاً ممتعاً يصور عصرهم خير تصوير، ثم كان صالون كصالون الأميرة نازلى هانم «بعابدين» يختلف اليه قادة الفكر وعظماء الرجال فى العصر القريب، يتحدثون فيه عن الشرق والغرب، وتثار فيه أفكار لها قيمتها وخطرها، وكان نمطهم فى أحاديثهم وتفكيرهم يخالف ماكان عليه رجال على باشا مبارك وأمثاله — وكان غير هذه الصالونات مجتمعات وأحاديث ونوادر وفكاهات فى البيئات المختلفة من بيئة فلسفية كبيئة السيد جمال الدين، أودينية اجتماعية كبيئة الشيخ محمد عبده، أوفكاهية كبيئة الشيخ حسن الآلاتى، أو بيئة المغنين أمثال الحامولى ومحمد عثمان، وكان يجرى فى جميعها أقوال وأفعال هى أدل على الذوق المصرى والتفكير المصرى والخلق المصرى من كل ما خلفوا من مؤلفات ومجلات وصحف.

هذه الثروة التى لا تقدر — آخذة — مع الأسف الشديد — فى الضياع، وليس يدون منها — فيما أعلم — شيء يذكر، وأكثر الذين عنوا بترجمة هؤلاء الرجال أساءوا اليهم وإلى التاريخ كل الاساءة، إذ كانت ترجمتهم «ترجمة رسمية» اقتصروا فيها على اسم المترجم له والمولد وتاريخ الولادة، والمعاهد التى تعلم فيها والأعمال التى تولاها، والكتب التى ألفها وغير ذلك مما يعد من الأعراض، فأما الجوهر، وأما شخصية الرجل، وأما حياته الاجتماعية التى تدلنا على من هو ومن قومه، ومن هو فى نفسه، فلا يعرضون لها بشيء. وقد كان السابقون الأولون على تقدم عصورهم — أصح نظراً، وأحسن أداء، وأوفى للتاريخ، فبين يدىّ الآن جزء من كتاب الأغانى فتحته حيثما اتفق فوقع نظرى على ترجمة ابراهيم الموصلى، فذكر نسبه ونشأته، وذكر حكايات عدة حدثت له مع غلمانه وجواريه وأصحابه، وما وصل اليه من الأموال وما ورثه أهله، وأحاديث عن مروءته، وأحداثا حدثت له مع الرشيد ويحيى بن خالد، وكيفية تعليمه الغناء للجوارى، واتصاله بالخلفاء وسيرته معهم، وعدد الأدوار التى غناها، وعشقه ومن عشق، وأثر أصواته فى الناس، الى آخره مما يستطيع الأديب أو المؤرخ ان يضع له صورة دقيقة تمثله، ويضع لمجتمعه رسماً واضحاً يبينه — وبين يدى كذلك الجزء الأول من كتاب جامع التواريخ المسمى «نشوار المحاضرة» للتنوخى، يقول فى سبب تأليفه: أنه قد اجتمع قديماً مع مشايخ فضلاء، علماء أدباء، قد عرفوا أحاديث الملل، وأخبار الملوك والدول، وأحاديث البخلاء والظرفاء، والعلماء والفلاسفة، والأغبياء وقطاع الطريق والمتلصصين، (وعدّد كل أصناف الناس)، وكانوا يوردون كل فن من تلك الفنون على حسب ما تقتضيه المحادثة، وتبعثه المفاوضة، فلما تطاولت السنون، ومات المشيخة الذين كانوا مادة هذا الفن، ولم يبق من نظرائهم الا اليسير الذى إن مات ولم يحفظ عنه مايحكيه، مات بموته مايرويه، عمد من أجل ذلك الى تدوين هذه الأحاديث فى كتابه، والتزم أن يذكر فيه فقط مايدور فى المجالس مما لم يذكر فى كتاب — ويقرؤه القارىء فيجده يصور عصره أجمل تصوير، وكتب الجاحظ لم تترك صغيرة ولا كبيرة من أخبار عصره وأحداثه الاجتماعية من الخصيان والغلمان، والبخلاء والظرفاء، والنبات والحيوان، إلا أحصته وشرحته فى دقة واسهاب

ومالنا نذهب بعيداً والعصر الذى نسميه مظلماً أنتج مثل «الجبرتى» الذى دوّن من الأحداث وتاريخ الرجال فى عصره مالم نفعله نحن لعصرنا

أما كتبنا نحن فقد عمدتُ الى خيرها وأخرجت منه ترجمة رفاعه بك، فوجدته يسرد ولادته وتاريخها والمدارس التى دخلها

ورحلته الى أوربا ، والوظائف التى تولاها بعد عودته ، واسماء الكتب التى ألفها أو ترجمها ، وسنة وفاته ـ ولكنك تتساءل بعد قراءتها : من رفاعه بك؟ ، ما معيشته الاجتماعية؟ ، ماشخصيته؟ ، ماعلاقته بقومه؟ ، فلا تجد شيئاً من ذلك ــ هذا حال رفاعه بك الذى ملأ اسمه كل مكان ، فما بالك بأمثال المغمورين ظلماً ، أمثال الشيخ حسن الطويل والشيخ حسين المرصفى وأمثالهما

بل بالأمس القريب مات حافظ ابراهيم ، وكانت حياته الاجتماعية أغنى ماتكون حياة ، كل ليلة ، يغشى جمعا أو يغشى بيته جمع ، فيملأ المجلس بأحاديثه العذبة ، وفكاهاته الحلوة ، وهى ـ فى كثير منها ـ تفوق مادونه الأقدمون من ملح ونوادر ــ ولعلها إن جمعت ودونت أفادت تاريخ الادب وتاريخ الاجتماع أكثر مما يفيده ديوانه ، ومع هذا لم ينشط أحد لتدوينها ، ولم يلتفت لقيمتها ، وسيعفى عليها الزمن الذى عفى على ملح المويلحى والبابلى ، وفى ذلك خسارة لاتقدر . ولقد حدثت بعض الادباء فى ذلك ورجوته فى هذا العمل ، فاعتذر بأن أكثر النوادر انما تحسن اذا أديت باللغة العامية ، وتفقد قيمتها اذا حكيت باللغة الفصحى ، ولكن ماهذا الكبر على اللغة العامية ، والسابقون من أعلام الأدب لم يكونوا يتحرجون من ذكر النادرة الحلوة باللغة العامية ، اذا لم يحسن الاداء الا بها ، كما فعل الجاحظ فى البيان والتبيين ، وابن زولاق فى أخبار سيبويه ، والابشيهى فى المستطرف

ان فى ذمتنا للجيل القادم عهدا أن نسلم إليه تاريخه كاملا متصل الحلقات كما تسلمناه ، فإذا نحن لم نفعل فقد أضعنا الأمانة وخنا العهد ــ وفينا بحمد الله رجال شهدوا الجيل الماضى ، وكان لهم من المنزلة ماستطاعوا معها أن يخالطوا البيئات المختلفة ، ويطلعوا على خفاياها ودخائلها ، ولهم من الذكاء وحسن النظر وصدق الرواية وقوة الحافظة وبلاغة اللسان والقلم ، ما يمكنهم من الأداء على أحسن وجه ، أمثال الهلباوى ولطفى السيد فى نوع من الأوساط ، والنجار والسكندرى فى نوع آخر ، والسيد محمد الببلاوى وكبار علماء الازهر فى أوساطهم ، وهكذا ــ فهل يشاركوننا فى الشعور بمالديهم من ثروة حافلة ، وفى الشعور بما عليهم من تبعة ، فيقدمون للجيل الحاضر والقادم أثمن عمل تاريخى ؟ فأن لم يفعلوا فهل للشبان أن يدركوا قيمة ماعندهم فينشطوا للاتصال بهم ، وتدوين ما يأخذون عنهم ، قبل أن تضيع الثروة ، وتفلت الفرصة ــ أطال الله فى أعمارهم ؟

العام الدراسى الجـــديد

مما أملاه علينا أساتذتنا فى دروس التربية أنه كان الغرض من إنشاء المدارس فى مصر إعداد الموظفين الذين تحتاج اليهم الحكومة فى دواوينها

فلهذا أنشئت وعلى هذا كان نهجها . ولقد نجحت مدارسنا فى ذلك نجاحا مشكورا

تخيلت لها الحكومة الموظف الذى ترجوه . فأعدت المدارس للحكومة التلميذ الذى يكون منه ذلك الموظف ــ تخيلت الأولى فى موظفها أن يكون فى عمله من غير بصر ولاسمع ولا إحساس ــ فجاءت الثانية إلى عين التلميذ ففقأتها . وإلى أذنه فأصمتها . والى إحساسه فأماتته . حتى أنه ليسير فى طريقه على أعين الناس وأفئدتهم ، وبين أنينهم وعويلهم ثم تسأله : ماذا رأيت أو سمعت ؟ فلا يكاد يذكر لك شيئا . ذلك لأن مدرسته أخذته بالانقطاع عن كل شىء مهما صادفه . وهو يرجو أن يكون عندها محمودا

تخيلت الأولى فى موظفها حينذاك أن يكون غمرا خاملا جبانا ، يرى فى رئيسه مايراه الجهلاء فى آلهتها . فجاءت الثانية بحولها وطولها تفرغ فيه كل هذه ، إفراغا ، مرة باسم الأخلاق ! وأخرى بالقهر والعسف . حتى تم لها ما أرادت ــ وأمتعت تلك الحكومات بهذا النوع من الموظفين

والآن وقد غصت الدواوين بالموظفين وفاض المتخرجون فى المدارس . حتى اصبحوا عيالا على ذويهم . وكلا على أهليهم إلا القليل منهم ممن اشتغل بعمل ما كان يخطر له على بال

فهل آن لرجال التربية والتعليم أن يعلنوا انقضاء أجل ذلك الغرض . وينادوا بالغرض الصحيح الذى يقوم الاخلاق والعقول والأجسام ليأخذ الأبناء قسطهم من الحياة كاملا ــ ويؤدوا ماعليهم لبلادهم أحسن أداء ؟ ؟ ذلك ما ننتظره

ابراهيم مصطفى ناصف	ايرادات الدقهلية .

الرسالة الثانية :

من الاستاذ توفيق الحكيم

الى الدكتور طه حسين

عزيزى الدكتور

قرأت الرد ، ومرة أخرى أتأمل ما بيمينك . هذه العصا عجيبة التركيب ، انك لاتلمس شيئا حتى ينقلب إلى حق ، حق كبير يبتلع كل رأى ، ويلقف كل حجة . تلك عصا الأستاذية . ما كنت أجهل انك حاملها فى هذا العصر . نحن متفقان . ولا خلاف بيننا فى الغاية . وهو مطلبنا . هنالك تفاصيل أفترق فيها عن الدكتور ولن أعود إليها . فأنا أفزع من النظر إلى الوراء ، خشية أن أتحول إلى تمثال من الملح ، أوحتى إلى تمثال من الذهب . نفسى تصدف أحيانا عن الفكرة الجامدة مهما تكن خالدة ، ويحلو لى احيانا أن أنثر الأفكار عابثا من نافذة قطار . ان رسائلنا فى حقيقتها لاتعنى اكثر من أثارة الغبار فى أرض نائمة مفروشة بالحصى . لسنا نصدر أحكاما بهذه الكتب السريعة . انما نحن نطرح مسائل ونلقى بفروض سوف يلتقطها ويجمعها الباحثون المنقطعون يوم تستيقظ الأجيال . اتفقنا اذن . أو ينبغى لنا أن نتفق على أى حال ، حتى ننصرف إلى شىء جديد . إن البحث عن الجديد هو الخليق عندى بالمجهود . ولقد فتح لنا اليوم باب الجديد الأستاذ أحمد أمين . قال لى ذات مساء انه يضع كتابا فى أصول النقد ، ويود أن يولينى شرف المشاركة فى البحث من بعض وجوهه . النقد ؟ لفظ رن فى أذنى . وذكرت للفور ان رسالتى الأولى للدكتور كان موضوعها « الخلق » . وقلت فى نفسى ما يمنع من اتمام الكلام فى رسالة ثانية يكون موضوعها « النقد » واذا الامر ينكشف لى عن قضية كبيرة : أنعد النقد كالخلق خاضعا لسلطان التيارات الفكرية الثلاثة التى ذكرها الدكتور : التيار المصرى القديم ، والتيار العربى ، والتيار الأوربى ؟ أم نعد النقد كالعلم لايخضع لمثل هذه المؤثرات ؟ أما أنا فلن أجيب من فورى عن هذا السؤال . فأنا أكتب ولا أدرى أين يحط بى القلم . دعنى أو لا أنشى على هذا النغم بعض « تقاسيم » دون أن أعنى الآن بالغاية . ان الغاية أحيانا رخيصة بجانب الوسيلة على الأقل فى نظر الفن . لأن الغاية فى الفن لاتبرر الوسيلة . الحياة كذلك ، تلك القطعة الفنية التى أبدعها الخالق ، أهى شىء غير وسيلة متينة التكوين ؟ ألها معنى فى غير ذلك الطريق المبين الذى أوله ضباب وآخره ضباب ؟ خط هندسى رسم على لوح الوجود ، كيف ابتدأ ، كيف انتهى ؟ لايعنى ذلك علم الهندسة . إنه خط بين نقطتين وكفى . ليس لنا أن نسأل عن غاية الحياة ، ولا عن غاية الفن ، ولا عن غاية العلم . إن الغاية لا تهم . انما المعنى كله فى الوسيلة . الحياة هى الطريق . العلم هو الطريقة . الفن هو الأسلوب . أما الغاية فلا غاية . وهل يرتجى من العلم أو من الفن أو من الحياة غاية مطلقة يوماً من الأيام ؟ محال . مانحن إلا أسلوب الخالق . ما الكون إلا أسلوب . الأسلوب كل شىء عند كل خالق وفى كل خلق . ان الخالق أعظم من أن يحبس إرادته الخالدة فى حدود ، غاية ، لفظ يدل بذاته على معنى الانتهاء . فى اعتقادى أن كلمة « غاية » هى من صنع العقل البشرى الصغير . هذا العقل المحدود الذى يضع كل شىء دائماً داخل حدود ، ويأبى إلا أن يكون لكل شىء أول وآخر . إنما الخلود فى الأسلوب . لأن الأسلوب لا أول له ولا آخر ، فهو شىء كائن دائماً ، لا علاقة له بالزمن . إن رجل الفن ، وهو المقلد الأصغر للمبدع الأكبر ، يدرك أن الفن لايعيش بالغاية . لأن الغاية فانية كاسمها . وإنما يعيش الفن بالأسلوب . لقد انقضت الغاية من تشييد الاهرام ، وفنيت الغاية من بناء البارتينون . دفن الموتى أو عبادة الآلهة الغابرين غاية قد ماتت وبقى أسلوب الفن وحده خالداً فى الأهرام والبارتينون . خدمة الأنسانية غاية العلم فى نظر البسطاء . ولو سئل عالم فى ذلك لابتسم : « مالى وللأنسانية ! إنما أنا أبحث عن سر أسلوب الصانع الأعظم . إنما هى لذة البحث وحدها . إنما هى طريقة البحث وأسلوبه . ولولا ذلك السرور الذى يملأ نفسى إذ ينكشف لعينى الباحثة عن جمال أسلوب الله لما تجشمت النصب فى سبيل العلم ، ولما كان للعلم هذا المعنى الرفيع . » المخترعات كذلك ليست غاية العلم . هى تطبيق للعلم . إنما العلم هو البحث الخالص المجرد عن كل غاية وعن كل استغلال . لقد كان الاغريق يبحثون ولا يطبقون . فيثاغورس مثل من أمثلة الأسلوب الخالد للعلم الخالص . الاسلوب اذن هو محور النقد كما هو عماد الخلق ، وكلمة الأسلوب رحبة عميقة كالبحر ، فى جوفها كل كنوز المعرفة التى يصبو اليها البشر . ولعل كل ما أوتيه الانسان من سليقة سامية منذ أول الأزمان ليس الا انعكاس أسلوب الخالق فى نفس الانسان . هذا المنطق الذى نشأنا عليه ، ونرجع اليه فى كل حياتنا ، هذا الاحساس بالنتيجة والسبب ، هذا الشعور بالتناسق والتناسب ، هذا الادراك للصلة التى تربط الشىء بالشىء ، من أين جاءنا هذا نحن البشر ؟ أهناك مصدر آخر غير أسلوب الخالق ؟ فتحت البشرية عينيها فألفته حولها .

فهو موجود قبلها وقبل الخليقة كما يوجد الرسم والتصميم قبل البناء. إن أسلوب المبدع فى صنع الخليقة هو وحده المنبع الأزلى لهذه الصفات كلها: المنطق، ارتباط السبب بالنتيجة، والشيء بالشيء، والجزء بالكل، والتناسق والتناسب. صفات هى بعينها صفات الأسلوب السليم لكل عمل فنى عظيم. أسلوب الله هو المعلم الأول والأخير. وما أول صورة رسمها الانسان على الأحجار وعظام الحيوان سوى اعلان شعوره الخفى بتلك الصفات. إن رجل الفن الأول هو أول انسان عرف «المنطق» صفة فنية بعد أن كان المنطق سليقة سامية تسبح فى أنحاء نفسه ولا يعرف ماهى. إن المنطق الذى شيد الأهرام صورة محكمة لهو المنطق الذى شيد الكون. ما المنطق؟ ما معنى المنطق؟ سره فى تلك المرآة العظيمة الصافية التى تحيط بنا كالجدران: الوجود، أجمل مثال للمنطق فى الأسلوب ينبغى لرجل الفن والأدب والعلم أن يطيل فيه النظر. كل شيء فى هذا الوجود مصنوع على طريقة واحدة وعلى قاعدة واحدة. ما القاعدة التى بنى عليها الوجود؟ هى القاعدة التى بنيت عليها الأهرام. هى قاعدة كل بناء: التماسك بين الأجزاء فى كل واحد متسق. هذا التماسك ما علته وكيف يكون؟ قانون أستطيع أن أفرغه كما يفعل الرياضيون فى صيغة بسيطة من لفظين: «الأخذ والعطاء». كل شيء فى هذا الوجود يحيا على نمط واحد. وكل حياة فى هذا الوجود لها مظهر واحد: أخذ وعطاء فى حركات متصلة متشابهة (١): زفير وشهيق عند الانسان والأحياء، اكتساب واشعاع عند النجوم والأشياء. الأخذ والعطاء قانون التماسك والاتصال فى حياة الفرد والمجتمع والأمة والأمم. وفى حياة الاخلاق والسياسة والاقتصاد. وفى حياة المادة والروح. وفى حياة الأرض والأجرام والسدم. ليس فى الوجود شيء لا يأخذ ولا يعطى. وليس فى الوجود شيء يعطى ولا يأخذ. كل شيء يعتمد على كل شيء فى هذا الكون. بنيان مرصوص يشد بعضه بعضا. وكل خلق بنيان. ولا بنيان بغير وحدة شاملة، ولا وحدة شاملة بغير تضامن بين الحجر والحجر، وبين الجزء والجزء. هذا التضامن وليد ذلك القانون: «الأخذ والعطاء». ليس هذا كل المنطق فى صنع الوجود، انما المنطق فى تركيب ذلك القانون. ما قوام الأخذ والعطاء؟ هل يكون أخذ وعطاء إلا بين كائنات متشابهات؟ ما الحال لو أن الخالق أبدع وجودا آخر على اسلوب آخر، فصنع اناسا يعيشون بالزفير ولا يعرفون الشهيق. ومخلوقات تأكل ولا تصرف، وأجراما تكتسب الحرارة والضوء ولا تشع؟ أى اتصال يمكن أن يقوم بين كائنات خلقت على غير أسلوب واحد؟ لا اتصال، وحيث لا اتصال لا بناء. لا خلق ولا بناء اذن فى الكون أو فى الفن بغير وحدة الأسلوب. كذلك فى مادة الاجزاء. هل يقوم أخذ وعطاء بين أجسام لا تتحد فى مواد البناء؟ أى اتصال بينى وبين اخى وابنى لو ان الخالق صنعنى من عناصر غير عناصرهما، فجعلنى من يابس ورطب وجعلهما من نور ونار وغاز وبخار؟ أى ارتباط لو انه جعل كل مخلوق منفردا بمادته وهيئته وعناصره عن كل مخلوق. أى هرم يمكن أن يشيد بأحجار، أحدها من صخر، وآخر من عجين، والثالث من ورق، والرابع من طين؟ لا ارتباط بغير تشابه وتماثل. ولا تضامن بين أجزاء غير متجانسة فى التركيب. إن كل ما نحس وجوده يتحد معنا فى بعض العناصر. بغير هذا ما كنا نعترف له بوجود. إنا نعرف الأجرام لأن أجسامنا تعرف الحرارة والضوء والحديد. التشابه شرط الأخذ والعطاء. الاختلاف كذلك شرط آخر. وهل يقوم أخذ وعطاء إلا بين كائنات مختلفة؟ ما الحال لو أن الخالق صنع كل شيء ككل شيء، فجعل كل رجل ككل رجل، وكل جرم ككل جرم؟ طبع واحد، ومنظر واحد، وحجم واحد. أليس هذا التشابه المطلق ينفى الشخصية؟ وحيث لا شخصية فلا أخذ ولا عطاء؟ ولا تماسك ولا اتصال؟ وهل من صلة بينى وبين غيرى إلا لاختلاف شخصه عن شخصى وما عنده عما عندى؟ وهل رابطة الأجرام إلا اختلافها فى الأحجام؟ الجاذبية، الحب، هل علتهما إلا اختلاف النسب فى القوى والأشكال؟ ان مثل هذا الكون المتماثل لا يمكن كذلك أن يشيد أو يوجد. مثله مثل قصة تمثيلية أشخاصها لهم عين الاسم والجسم والطبع والحظ، يتكلمون عين الكلام، ويتحركون عين الحركات، ويتصرفون عين التصرفات! أى علاقة يمكن أن تنشأ بين هذه المخلوقات؟ وهل يشعر أحدهم بوجود الآخر؟ وهل يدرك أحد منهم معنى كلمة «أنا»؟ لا بد من بعض الاختلاف بين الكائنات حتى يتميز كل كائن من الآخر. ومتى تميزت الأشخاص والأشياء والأجزاء نشأ بينها الأخذ والعطاء، سر التماسك فى كل بناء... ها هنا اذن قوام التناسق: «التشابه لا كل التشابه، والاختلاف لا كل الاختلاف!» (بيتهوفن الذى كشف لى منذ ست سنوات عن سر التأليف بين صوتين فى عين الوقت. لاحظت أنه يجمع بين صوتين متشابهين لا كل التشابه مختلفين لا كل الاختلاف. وأدركت أن لا تناسق بغير هذا. فلو أنه جعل الصوتين متشابهين كل التشابه لفنى أحدهما فى الآخر، وما ميزنا شيئاً غير صوت واحد. ولو أنه جعلهما مختلفين

(١) تعريف شخصى للحياة، أدنى الصيغة بالقياس إلى تعريف: «كلود برنار» العلمى الصيغة.

كل الاختلاف لاستحال على الأذن أن تصل بينهما وهما متباعدان متنافران. فأساس « التناسق » فى الموسيقى والفن كأساس التناسق فى الحياة والكون: إئتلاف بين الأجزاء لا كل الائتلاف، واختلاف بينها لا كل الاختلاف. ملاحظة أخرى داخل القوسين: كلامى عن المصرية والعربية فى رسالتى الأولى ليس الا رغبة منى فى فرز خصائص أمم هذا العالم العربى الذى أخشى انحلال آدابه. انما الحب والتضامن فى اختلاف ما عندنا عما عند اخواننا الجيران بعض الاختلاف. إن التشابه مضمون باللغة الواحدة والتراث الواحد. فليبحث كل منا عن شخصيته المميزة فى ماضيه الطويل بأكمله. المصرى فى مصر القديمة وما بعدها من عصور، والسورى فى فينيقيا وما بعدها، والعراقى فى بابل وما بعدها وما قبلها من تواريخ الخ الخ... كل يستخرج من بطن الأرض التى يحيا عليها كل محاسن طبيعتها وكل كنوز ماضيها. ان الفن ابن الأرض. الولد للفراش والفن للأرض. انى أقول بالمصرية والعراقية والسورية الخ الخ لا للانفصال بل للاتصال، ولا للتعصب بل للحب. ان اليوم الذى تزهو فيه لكل منا شخصية قوية هو اليوم الذى يكثر فيه التعامل بيننا والارتباط. أما فناؤنا جميعا فى شخصية العرب الغابرين فأمر لا يمكن أن يكون، لأنه مخالف لطبيعة الأشياء. ان لكل أرض صفحات من التاريخ سابقة على عهد العرب. ماذا نفعل بهذه الصفحات؟ أنمزقها كما يصنع البرابرة المتوحشون أم نطالعها ونستخرج منها مايفيد الانسانية؟ لابد أن يكون لكل أرض لون. ولكل أرض اسم ورسم وجسم. ولقد كان الأمر كذلك حتى ايام دولة العرب. فكانت الشام غير العراق غير مصر غير الأندلس. والفن والشعر والأدب أظهر دليل على وجود الفروق الجلية، وعلى صدق ذلك القانون: تشابه بين تلك الأقطار لا كل التشابه. واختلاف بينها لا كل الاختلاف. فكيف يكون الأمر اليوم غير ذلك؟ ونغضب اذ تكون هناك مصر وهناك شام وهناك عراق؟ مثل ما كانت دولة العرب أمس. ينبغى للعالم العربى اليوم أن يكون: « وحدة شاملة وكتلة بنيان فى شئون السياسة والذود والدفاع، وشخصيات منوعة الألوان فى شئون الفن والخلق والابداع. »

جملة القول عندى ان اسلوب الله فى صنع الكون هو وحده منبع الفن، هو وحده مصدر ذلك الادراك الانسانى للجمال منذ مبدأ الأجيال. أما نقاد القرن التاسع عشر فلا أحسبهم رفعوا أبصارهم الى هذا الأسلوب مستلهمين. انما هم قد خروا امام تمثال العلم ساجدين، أنظارهم خاشعة ترنو فى رجاء إلى شعاعين من الكهرباء صادرين من عدسات عينيه الجامدتين. القرن التاسع عشر قرن تأليه العلم. فلقد بهر العلم العالم بانتصارات حاسمات متواليات، فأذا الأدب والفن والفلسفة كلها تهرع اليه تقر له بالغلبة والسلطان. واذا كل شىء يطلب الى العلم تفسيرا. واذا العلم فى نشوة الظافر وبسمة الواثق لا يأبى أن يقضى فيما يعنيه وفيما لا يعنيه. واذا العلم وهو علم المادة يريد أن يتحدث فى شئون الروح. واذا سئل عن الروح قال دونكم هذا الطريق وأشار إلى عين الطرائق التى أدت إلى الفوز فى شئون المادة: التحليل والتركيب والتجربة والقياس والاستنتاج والاستقراء الخ. بهت العالم لنظرية النشوء والارتقاء. وآمن الناس أن اصلنا من ماء وخلايا حية وحيوان ظل يسمو فى المرتبة على مدى الأزمان حتى بلغ القرد جد الانسان! نظرية جميلة، خلب جمالها اللب على الرغم من بشاعة ذلك الجد الغول. أما صدقها فجائز من حيث المادة والأجسام. وهنا تبدو قضية: أتصدق هذه النظرية على الروح أيضا وشئون الروح؟ الاحساس بالجمال: أيخضع أيضا للنشوء والارتقاء؟ نعم، نعم، نعم. كذلك قالت المدرسة الانجليزية (سبنسر، جرانت ألن، رسكن). وكان لابد لهذه العقول التى فتنتها نظرية التطور فى المادة أن تبرز للناس نظرية التطور فى الجمال (١).

وعجب الناس لنظريات علم طبقات الأرض وعلم الحيوان وعلم الحياة وأبحاث (لا مارك) فى تأثير البيئة والمناخ وظروف الحياة على طبيعة الأجسام، فقامت المدرسة الفرنسية (هيوليت تين) (٢) تخرج للفكر والأدب نظرية للجمال والفن: الوحى فيها والالهام مقاييس الحرارة وموازين الأحجام!

بل أنى لأرى أصبع العلم قبل ذلك بقرن يقود المدرسة الألمانية إلى نظريتها فى الجمال (٣).

ولم يكف العلم هذا التوجيه والتأثير بل تناول بيديه فى هذا العهد الحديث جسم الجمال: وأعمل فيه المشرط والمسبار (علم النفس الحديث) (٤) قضى الأمر، وخرج الجمال من حدائق الفلسفة إلى معامل العلم..!

لست أزرى على طرائق العلم. فهى وسائل البشرية التى لا تملك غيرها. وأذكر يوم كنت أرصد وقتاً للتفكير فى هذه المسائل انى بسطت أمام نفسى هذا السؤال الساذج: الحيوان ما علمه بالجمال؟ حصان بين مهرتين إحداهما جميلة مليئة شهباء

(١) Grant Allen : L'évolution esthétique

(٢) H . Taine : Philosophie de l'art

(٣) Kant : La Critique du Jugemnt

(٤) G. Thoma :Traité de Psycologie

والأخرى قبيحة هزيلة عرجاء ، إلى أيتهما يميل ؟ ماترددت يومئذ أن أقول فى ثقة واقتناع : « الى الجميلة يميل ، ماوجه الترجيح ؟ لست أدرى ، وحبذا التجربة فهى الحكم الفصل ! » . لكنى يومئذ كنت أفكر تفكيراً صرفا فى قهوة صاخبة أعتدت أن آوى اليها للتفكير الهادىء ، فأين لى بالخيول والأفراس أجرى عليها التجاريب ؟ فها أنذا أقر بأن التجربة وسيلة بشرية طبيعية للوصول إلى المعرفة . وأقر بأنى شعرت يوماً بالحاجة الى ممارستها فى شئون الجمال . غير أنى على الرغم من هذا لا أحب أن أعتقد ببساطة أن نظريات، العلم فى شئون المادة تصدق دائماً فى شئون الروح . لا شيء يستطيع أن يقنعنى بأن احساس الجمال وليد تطور ونشوء . بى رغبة أن أصيح بغير دليل فى يدى أن إدراك الجمال ولد كاملا فى قلب الأنسان منذ رفع بصره وبصيرته إلى اسلوب الله فوعاه . انى أخشى أن نقع فى الغلط إذ نطبق نظريات المادة فى مسائل الروح ، وهل يستطيع الدكتور أن يجيز قول رسكن وجرانت ألن فى الألياذة : «... ماكان يعنى الأقدمون بالطبيعة ولا بجمالها إلا حين يتصلان بعيش الأنسان. ففى الألياذة ماكان يوصف منظر طبيعى لذاته ، بل لمنفعته للانسان ، كأن يكون مكانا خصيبا يفيض بالحنطة أو تكثر فيه الجياد . ماكانت الطبيعة سوى إطار للحوادث والاشخاص ، لا إنها لذاتها محل للوصف . ان الطبيعة لم تحب لذاتها الا فى العصر الحديث ، حيث استيقظ الأحساس بها ، احساس صاف خالص لاتشوبه شائبة النفع أو المصلحة...» ماذا أقول فى هذا الكلام؟ أهو جهل بمشاعر الاقدمين؟ أم تورط فى تطبيق نظرية التطور والنشوء؟ انصدق حقا أن الشعور الرفيع بجمال الطبيعة لم يعرفه القدماء خالصا لدنوهم من الحيوانية ؟ أنصدق أن « هومير » لم يحس جمال الطبيعة لذاتها ؟ أهذا رسكن يقول هذا الكلام ؟ أما أنا فقد مضى كلامى فى الطبيعة والقدماء . ورأيى الذى أبديته فى رسالتى الأولى أن الاقدمين كانوا أقرب منا الى الطبيعة والى فهمها . لقد كان الأقدمون يحسون أنهم جزء من الطبيعة ونغم من انغامها . أما رسكن وألن أو الانسان الحديث فلا يحس الا ذاته الآدمية منفصلة عن الطبيعة وعن كل شيء . دليلى فن القدماء من مصريين وأغريق . أهذا فن قوم لا يحسون الطبيعة لذاتها ولا يدركون قوانينها وأساليبها ؟ ! الى هذا الحد يصل الانقياد الى النظريات ؟ من أجل هذا الأريد التمكين للعلم حتى يجلس على عرش النقد دون شريك . أحب طرائق العلم . لكنى أخشى نتائج العلم . فلنرتفع بالروح قليلا . لست اريد ان أضع الروح تحت مبضع العلم ، رهبة منى ان يشقها فيجدها غلافا أجوف . وإنى لا أنسى يوم شاهدت تشريح جثة آدمى للمرة الأولى . أى قلق يومئذ مزق إيمانى بقيمة الانسان ! كلا . انى كرجل من رجال الروح لا أريد أن أفجع فى خير ما أعيش به وله . يريح نفسى دائماً أن أقول أن عقل العلم لايكفى . ولا بد دون إدراك الجمال والروح من العودة إلى القلب . أريد ألا يخرجنى العلم من ذلك الايمان الذى كان يضىء فى قلوب المصريين القدماء . إيمان قربهم من الخالق ، فاذا هم ببصائرهم العميقة العجيبة أول آدميين استطاعوا فهم أسلوب الله والنفوذ الى قوانين إبداعه . إن أقصى العلم الأيمان . أحب ذلك العلم المؤمن الشاعر الذى عرفه أيضاً الفلكيون العظام فى القرنين السادس عشر والسابع عشر : كوبرنيك ، وجاليليه وكبلر ، آخر قطرة من ذلك العلم الممزوج بالايمان ، كانوا ينظرون الى الكواكب كما نظر اليها من قبل المصريون الأقدمون . لابعين العقل، بل بعين القلب أيضاً . كانت السماء والنجوم فى نظرهم مخلوقات حية . كانوا أيضا يحسون فى كتلة النجوم وفى هذا الكون بأكمله الروح الخالقة ويد المبدع الأعظم . ما أروع هذه العبارة من كبلر ، فيها تلخيص جميل لكل مايملأ نفسى : «... كل الخليقة ليست الا سمفونية عجيبة فى مجال الروح والأفكار كما هى فى مجال الأجسام والأحياء . كل شيء متماسك مرتبط بعرى متبادلة لا تنفصم . كل شيء يكون كلا متناسقا . ان الله قد خلقنا على صورته ، وأعطانا الاحساس بالتناسق . كل ما يوجد حى متحرك ، لأن كل شيء متتابع متصل . كل كوكب وكل نجم إن هو إلا حيوان ذو نفس . أن روح النجوم هى سر حركتها ، وسبب ذلك الحب الذى يربط بعضها إلى بعض ، وتعليل ذلك النظام الذى تسير عليه الظواهر الطبيعية ... »(1) أولئك رجال ساروا فى بيداء العقل دون أن ينسوا دليل القلب . أولئك هم العلماء العظام ! أرى الدكتور قد استشف رأيى بعد هذا التمهيد . نعم ولا أخشى أن أجيب الآن عن السؤال فأقول ان التيارات الثلاثة التى ذكرها الدكتور تصدق أيضا فى النقد كما تصدق فى الخلق . أما التيار الاوربى فى النقد فهو المرتكز على العلم . ولقد وصل الينا هذا التيار بالفعل وتأثرنا به . وان بعض كتب النقد التى ظهرت فى مصر الحديثة تنم عن هذا الاتجاه العلمى . وهو أمر لابأس به ، بل هو واجب محتوم ، على شريطة أن نقرن به ونضيف إليه عناصر جديدة ووسائل أخرى مستخرجة من أرضنا وتراثنا إذا أردنا أن ننشىء لآدابنا طريقة شخصية كاملة فى النقد . فأما التيار المصرى القديم فهو النقد المعتمد على الذوق ، اى سليقة المنطق والتناسق . وهو عند المصريين القدماء

(1) Kepler : Harmonices Mundi «1619»

سليقة المنطق الداخلى للأشياء والتناسق الباطن أى القانون الذى يربط الشيء بالشيء . أى جمال للأهرام غير ذلك التناسق الهندسى الخفى وتلك القوانين المستترة التى قامت عليها تلك الكتلة من الأحجار ! جمال عقلي داخلي . كذلك اسلوب الخالق لا يعنى بالجمال الظاهر وحده فى خلق الطبيعة . فأى جمال للثعبان والجعران ؟ ان الجمال الظاهر نسبي لا يقدره غير الأنسان . انما المنطق الداخلى للأشياء هو كل جمالها الحقيقى . هذا المقياس المصرى القديم للجمال ما أحسبه قد أثر بعد فى حياتنا الفكرية أوفى أحكامنا الفنية . أما التيار العربى القديم فهو النقد الذى قوامه ذوق الحس . أى سليقة المنطق الظاهر والتناسق الخارجي . الجمال عند العرب هو الجمال الظاهر الذى يسر العين ويلذ الأذن . أنستطيع أن نتخيل العرب تبنى الأهرام أو تقدر فيها جمالا ؟ لقد جاء العرب مصر وتحدثوا بجمال نيلها وأرضها وسمائها ولم يروا فى الأهرام الا شيئاً قد يحوى نقوداً مخبوءة ، أما بناؤه فشيء لا يحسب فى الفن . انما الحسن عند العرب حسن الهيئة قبل كل شيء . المساجد كالعرائس تكاد تخطر حسنا بزخارفها ، زينة للناظرين . بغير هذا فلا عمارة ولا فن . الشعر رنين لذيذ ، وخيال جميل ، ومعان لطيفة ، وألفاظ مختارة ظريفة ، بغير هذا فلا شعر ولا فن . الجمال عند العرب جمال انسانى . والفن عندهم شيء صنعه الأنسان لنفسه وللذته . الفن العربى القديم فن انسانى دنيوى . والفن المصرى القديم فن إلهى دينى . لهذا اختلفت المقاييس فى الجمال بين الفنين . احدهما يعنى بالتناسق الذى يروق الانسان ، والثانى يعنى بالتناسق الخفى بغير التفات الى الأنسان . ولعل المقياس العربى القديم هو فى مصر المنفرد حتى اليوم بالحكم فى قضايا الشعر والأدب . ولعل أقرب مثل الى الذاكرة ذلك الحكم الذى أصدره الدكتور على بيت للاستاذ العقاد :

هى كأس من كؤوس الخالدين   لم يشبها المزج من ماء وطين

ألم يكن مقياس الدكتور فى التقدير ذلك الذوق الحسى وذلك المنطق الخارجي الذى يربط الألفاظ ، فوجد اتصالا غير متسق بين الكؤوس والطين سمع له شيئاً كالطنين يشوب صفاء الرنين ؟ هذا المقياس العربى ذو الابرة الدقيقة عجيب فى تسجيل كل انحراف عن منطق الالفاظ . انما هنالك فى اعتقادى منطق آخر مستتر أمره يعنى المقياس المصرى . ترى لو ان الدكتور رجع اليه أما كان يحكم لبيت العقاد لا عليه ؟ أما كان يرى فيه تناسقا داخليا محكما هو كل ما عنى بأدائه الشاعر ؟

انى يوم قلت بمزج الروح بالمادة فى آدابنا كان يجب على أيضاً أن أقول بوضع المقياس المصرى فى النقد بجانب المقياس العربى .

وبعـــد ، فانى ولا ريب قد استأثرت منك ومن وقتك بمقدار لاحق لى فيه . غير أنى لولاك ماوضعت افكارى فى رسائل . انما أنا أكتب لك . أى ضمان أنت فى الشرق لحياة الفكر والبيان ! وهل أستطيع أن أنسى ما كنت لى وما تكون ؟

إنى أضع بين يديك كل اخلاص ؟

كوم حمادة فى ١٤ سبتمبر سنة ١٩٣٣   توفيق الحكيم

من فخرى بك البارودى

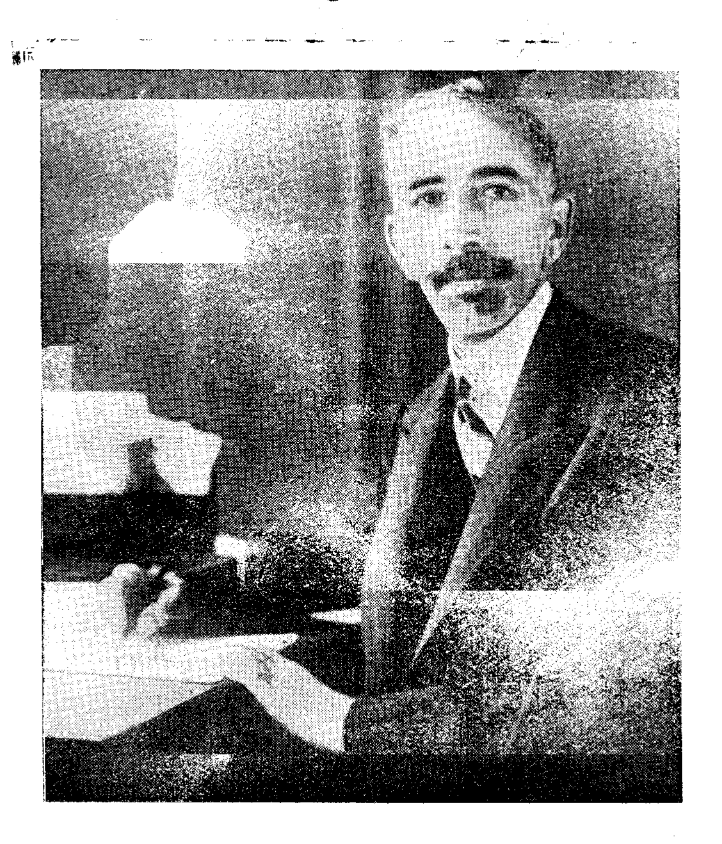
عضو مجلس النواب بدمشق

الى الاستاذ احمد أمين

(والضحى والليل) (يا أحمد أمين)
أنت فى التاريخ ذخر الباحثين
أنت فى الآداب ركن ثابت
أنت فى (الأخلاق) نور المهتدين
أنت مهـــدت سـبيلا واضحا
كان وعراً مرهقاً للسالكين
إن ما جئت به معجزة
ذكرتنا معجزات المرسلين
(فجرك) الباسم أحيي أملا
كان يذوى فى صدور الناشئين
(وضحاك) الضاحك اليوم بدا
مثل بدر فى ليـــالى التائهـــين
قل لعبَّـــادى وطه تمما
نشر اجزائكما للقارئين
ان وعـد الحر دين فألى ال
وعد واشفوا غلة المرتقبين
نحن والاخوان فى الشام على
مثل حر الجمر فى المنتظرين

البطـــل فى صورة ملك

المهندس الشاعر على محمود طـــه



تألَّقَ كالبرقـةِ الخـــاطفه
وجلجلَ كالرعدةِ القاصـــفه
مُبِين من الحق فى صوته
صدى البطش والرحمةِ الهاتفه
يخوضُ الغِمارَ دماً أو لظًى
ويركبُ للمأرب العاصفه
يطير على صَهَوات السحاب
ويمشى على اللجـــة الراجفه
ويقتحمُ الموتَ فى مأزقٍ
ترى الأرضَ من هوله واجفه
تَمزّقُ فى جانبيـــه الرياح
وتنفطرُ السُّحُبُ الواكفـــه
وتشـــتجرُ الرُّجُمُ الهاويات
وتعتنقُ الظُّلَمُ الزاحفـــه
عشِيَّة لا القلبُ طوعَ النهى
ولا العقلُ تأسره العاطفـــه
ولكنها وثباتُ الجرىء
على عثرات المنى الخـــائفه
شـــعوبٌ تعالج أصـــفادَها
وتأبى الحياة بها راســـفه
صَحَتْ بعـــد إغفاءة الحالمين
على لجـــةِ الزمنِ الجارفه
وحسبكَ بالدهر من مُنْذرٍ
كَرَبٌّ يعاقبُ من خالفَه
رأيتَ الســـفينةَ فى بحره
تنـــازعُها اللججُ القـــاذفه
مددتَ يديك فأرسـيتَها
أماناً من الغَمرة الحـــائفه
وخلفكَ من (يَعربٍ) أمةٌ
إلى النور فازعةٌ شاعفـــه
نَضَتْ (فيصلاً) من صقال السيوف
يُقَبِّلُ فيـــه الضحى شارفه
أعدْتَ لها مجـــدَها المجتبى
وبوّأتها الذروةَ الشـــائفه
بناءٍ من السؤدد العربىِّ
دعمتَ بتـالده طارفه
جلَتْ فيه (بغدادُ) عهدَ الرشيد
وأحييت لياليَها الســـالفه
وأرسلتها بعـــد نسيانها
حديثَ النباهة والعارفه
فوا أسفا كيف روعتها
بفقدكَ فى الليـــلة السادفه
صَحَتْ (بِرنُ) منكَ على نبأةٍ
تســـيلُ البروق بها راعفه
رمى الغربُ بالشرقِ إيماضَها
فردَّ الشموسَ به كاســـفه

أناخَ على سَرَوات العراق
فقصَّفَ أفنانَها الوارفه
طوى فجرُها بَسَماتِ المنى
وأسكت أوتارَها العازفه
ومصطبحينَ هوت كأسُهم
حُطاماً على الشفة الراشفه
أفاقوا على حُلم رائعٍ
كأنَّ بهم فزَعَ الآزفه
يردُّون بالشك صوتَ اليقين
وتصدُقُه الأعينُ الذارفه
وإنى لأسمع ما يسمعون
صدى الويل فى صَخَبِ العاصفه
وكيف ؟ وقد كنتَ نجمَ الرجاء
إذا قِيلَ ليس لها كاشفه
وما عرفوا عنك نقصَ التمام
بِبَيْعَ الصحيحة بالزائفه
تَحفُّك أبّهةُ المالكين
ونفسُك عن زهوها صادفه
سَرَتْ(١) بالوداعة فى بأسها
سُرَى النَّسْمِ فى الليلة الصائفه
وتحملُ عنهم من العبءِ ما
تخرُّ الجبالُ له خاسفه
وتهزأُ من صَرَعات الردى
وتُمسى على أمرهم عاكفه
إلى أن طوتها وأودت بها
غوائلُ تطوى الدجى خاطفه
فراحت تَرِفُّ على كفها
رفيفَ الندى فى اليد القاطفه
وما هىَ إلاَّ دُموعُ الأسى
هَمَتْ من جراحاتها النازفه
وما نسيتْ (دجلةٌ) انها
بشَطَّيْه حائمة طائفه
تباركهم من سماءِ الخلود
وتدعو (لغازيِّهم) هاتفه

(١) الضمير فى كل ما يأتى يعود الى النفس

مناظر من موقعة صفين

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

(تتمة)

وكان معاوية معروفا بالمغالاة فى التوسل بهذه المكائد فى سبيل الانتصار، فاذا اردنا أن نعرف سبب نجاح مكيدة المصاحف فلابد لنا من أن نفرض أن صفوف على لم تكن خالية من عيون معاوية، وليس التدليل على ذلك ببعيد المنال. فقد ارتفع فى اثناء القتال صوت بعد صوت يحاول احداث الفشل فى صفوف المقاتلين. غير أن الظروف لم تكن قد تهيأت لذلك بعد. فقد قام شيخ من شيوخ الازد فى اثناء المعركة فجعل يرثى قبيلته وينعى من مات منها فى سبيل نصرة على وجعل يقول: «والله ما هى الا ايدينا نقطعها بأيدينا، وماهى الا اجنحتنا نجذها باسيافنا . . . الخ» غير أن صيحته اضمحلت فى حماسة اخوانه وماتت فى جلبة المعركة. وكان رئيس ربيعة متهما بالميل الى معاوية، وقد حدث فى اثناء القتال أن انهزم بعض الضعفاء من ربيعة مع ثبات أهل الرايات والشجعان. وقد انصرف ذلك الرئيس منهزما عندما شهد فرار أول المنهزمين، فلما رأى ثبات سائر اصحابه عاد واعتذر عن هربه قائلا إنه كان لا يريد الا إرجاع المنهزمين.

فلا بد لنا من أن نفرض وجود هذه التيارات الخفية التى كانت تعمل فى جيش على حتى تستقيم الصورة وتصبح ملائمة لطبيعة الامور. وكان على لا يحفل بالبحث عن مثل هذه الدسائس. بل لقد كان اذا عرفها ورأى عند صاحبها شبهة البراءة لم يمد اليه يدا بسوء. وكان على من الشجاعة والاستهانة بالموت فى المحل المعروف، وكانت شجاعته هذه تجعله يترفع عن ان يعبأ بكشف هذه المكائد أو مقابلتها بمثلها. فقد كان رجل كفاح صريح.

على أن هذه التيارات الخفية لم تكن بأدعى الى فشل على من اضطراب الاهواء بين أصحابه. اذ قد كانت الاهواء تعصف ببعض قلوب من معه، وكان مسلكه الحر لا يكبح هذه الأهواء بل كان يكتفى بان يشير الى المبدأ السامى الذى يسعى اليه، ويحض الناس على التمسك به، ويكلهم بعد ذلك الى نفوسهم ومقدار مافيها من الايمان والحرص على الحق. فكان بعض قواده يتنافسون فيما بينهم فلا يعبأ بأن يلتفت الى تلك المنافسة، بل يحاول أن يصرف حماستهم الى مقصدهم الاسمى. وانا ضاربون هنا مثلا بصاحبين من اصحابه كان بينهم تنافس خفى أدى الى نتائج جليلة فى وقعة

صفين ، ونعني بهذين : الاشعث بن قيس والاشتر النخعي وهو مالك بن الحرث

كان الاشعث بن قيس كما تقدم حاكما على اذربيجان فى مدة خلافة عثمان، فلما قتل عثمان وتولى على لم يخرج عليه ، بل بقي على عمله واخذ البيعة له، واما الاشتر فقد كان من أهل العراق وكان رئيسا له شهامة وفيه صرامة ، وقد غضب على حكام العراق فى أيام عثمان وثار بهم حتى كان يمنعهم من الاستقرار والحكم ، ثم سار الى المدينة مع جماعة من أصحابه فكان من رؤساء الثوار الذين حاصروا عثمان بالمدينة . ولما قتل عثمان كان هو متكلم القوم والساعى فى اختيار الخليفة الجديد حتى اختير على ، فكان من أكبر قواده ، وكان الاشتر من أصلب قواد على عودا وأحصفهم رأيا ولعله كان من أكبرهم اخلاصا فى رغبة الأصلاح العام والعدل فى حكومة الدولة العربية .

غير أنه كان صارما لا يقبل هوادة، ولا يدارى فى رأيه . وكان يأخذ على على أنه قدم الاشعث بن قيس وجعله من قواده، لانه كان من اكبر رءوس الثوار على عثمان فلا يثق فيمن سبقت لهم ولاية الحكم فى أيام عثمان .

فلما كانت موقعة صفين تقدم الاشعث فى يوم القتال على الماء فابلى أحسن البلاء حتى تصايح الجنود بأن الاشعث هو صاحب الفخر فى ذلك اليوم . وكان المنتظر بعد ذلك ان نراه فى طليعة القوم فى كل المواطن . غير انا لا نكاد نسمع له بعد ذلك ذكرا فى مدة القتال العظيم بين الجيشين وقد دام اكثر من عشرة أيام ، فى حين أنا نجد بطل القتال هو الاشتر مالك بن الحرث ، نراه فى يمين القتال وقلبه ، وأنى سار نجد النصر والحماسة

أكان هذا عفوا غير مقصود ؟ اذن فاسمع ذلك الانفجار الذى حدث بين الاشتر والاشعث لتعلم مقدار ما كان فى أعماق نفسيهما من الحقد والكراهة . لما رفعت المصاحف وطلب معاوية التحكيم انقسم الرأى فى جيش على . ولسنا بسبيل عرض هذا المنظر وانما نقصد أن نقول ان الاشعث بن قيس كان من أول القواد الذين رضوا بالتحكيم وايقاف الحرب ، وسعى فى ذلك سعيا كثيرا على حين كان الاشتر قد قرب بجنوده من قلب جيش معاوية حتى اصبح على وشك الوصول الى شخصه ، وحتى فكر معاوية فى الانهزام والهرب ، وقد اضطر على عندما رأى انقسام اصحابه وفشلهم الى ان يرسل الى الاشتر يأمره بايقاف القتال والانصراف عن العدو ، وقد ابى الأشتر وتردد ثم اضطر الى الطاعة وهو كاره ساخط ، فلما عاد الاشتر الى على ورأى ما رأى من سعى الاشعث فى تضييع النصر من يده ثارت حفيظته وكان بينه وبين الاشعث منظر عاصف . قال الاشتر « اولستم قد رأيتم الظفر لولم تجمعوا على الجور ؟ » فقال الاشعث حانقا « انك والله ما رأيت ظفرا ولا جورا » ثم تدارك الأمر بعد ذلك وعلم أنه قد أنكر امرا عرفه الجميع . فخاطب الاشتر موادعا . قال « هلم الينا فانه لا رغبة بك عنا » فقال الاشتر غاضبا « بلى والله لرغبة بى عنك فى الدنيا للدنيا والآخرة للاخرة . ولقد سفك الله عز وجل بسيفى هذا دماء رجال ما انت عندى خير منهم ولا أحرم دما » فسكت الاشعث « وكانما قصع على انفه الحمم » غير انه استمر على سعيه فى ايقاف القتال حتى تم الامر واعلن للجند، وكان الاشعث هو الذى سار فى اعلانه. ثم أن الأشعث كانت له صولة اخرى عند كتابة الصحيفة التى كتب فيها التعهد، والتى ذكر فيها اسم الحكمين ، وموقفه ذلك يدل على ما كان فى قلبه من الحقد والحفيظة على على والاشتر . اراد على ان يختار عبدالله ابن عباس ليكون الحكم المختار من جانب على ، فثار الأشعث ومعه جماعة فقالوا لانرضى بغير أبى موسى الاشعرى وهو رجل غير موال لعلى ، وليس من الذين نهضوا معه الى حرب معاوية . فراجعهم على فى ذلك وقال اذا لم ترضوا بابن عباس فانى اختار الاشتر . فثار الاشعث عند ذلك ثورة عظيمة وقال : « وهل سعر الارض غير الاشتر ؟ وهل نحن الا فى حكم الاشتر ؟ » قال على مراجعا : « وما حكمه ؟ » قال : « ان يضرب بعضنا بعضا بالسيوف حتى يكون ما اردت وما اراد » لم تكن هذه لغة الاشعث يوم القتال على الماء . فما اشد ما حقد على على والاشتر فى أثناء الاقامة عند صفين . أليست الحرب جهد المستميت ؟ وهل يستميت مثل الاشعث اذا كان قلبه مليئا بمثل ذلك الغيظ ؟

لا نستطيع ان نقول ان الاشعث قد باع نفسه لمعاوية على احداث ما كان ، ولكننا لا نستطيع الا أن نلمح ما تولد فى قلبه من الحقد والكراهة ، فاما حقده فعلى ذلك المنافس الناجح وهو الاشتر ، واما الكراهة فكانت للخليفة الذى لم يتح له فرصة التصدر والرياسة بعد أن طمع فى ذلك منذ يوم القتال على الماء .

لقد كانت صفين مسرحا لعوامل خفية. واهواء قوية، ولم تذهب هذه العوامل وتلك الاهواء سدى ، بل قد عصفت بحزب على فى اشد المواقف وأحرجها

محمد فريد أبو حديد

تصحيح

جاء فى مقال : « مطالعات فى التصوف الاسلامى »

١ ـ فى الحديث الشريف : إنما مثلي ومثل . . والصواب مثل بحذف انما

٢ ـ فى الحديث الشريف : مثل ما بعثنى الله به من الهدى . . .

وكانت منهم طائفة « اخاذات » والصواب « أجادب »

بديع عبد الرحمن

دراسة فى التصوف

الأصل فى دراستى لهذا الموضوع ، هو الاعجاب المطلق ، ولقد أدى بى هذا الاعجاب ـ ومبعثه شوق روحى غامض الى اجتلاء بعض الحقائق السامية ـــ إلى التفرغ لدراسة التصوف الأسلامى فى كتب عدة لبعض أئمة الصوفيين وأخص بالذكر منهم الأمام ابا حامد الغزالى (١) والأطلاع على بعض الديانات الهندية وأهمها الديانة الوثنية التى يمثلها نبيهم كرشنا (٢) ، ولمذهب كرشنا وتعاليمه -- بنوع خاص ـــ أثر بارز فى دراستى لأصول التصوف . وينحصر مذهب كرشنا فى أن الانسان ، يعزف عن الخير لمجرد الوهم والخداع فى الدنيا وينصرف إلى الدنيا لأنه لا يعنى كثيرا بحقيقة الآخرة ، وهو يدعو إلى محاسبة النفس ، والقيام بالواجب بدون هوى ذاتى ، ومجاهدة الروح ، والفناء فى محبة الله ، وهو يشبه الجسم للروح بالثوب للجسم ، ومعنى هـــذا أنه يؤيد فكرة التناسخ . ويقول بأن الروح تنزع نفسها من الجسم المتداعى إذ لا يعود صالحا لها ، لتنتقل إلى جسم جديد ، ومعنى هذا أن الروح خالدة . وهو يعزو اعمال الأنسان الى الروح ، ويرى أن ثمة قوة عليا هى التى تحرك الأنسان .. وتسيره ، أى أن كل مايفعله الأنسان مسوق إليه بقدرة الله ، وإرادته العالية ، ولذلك فأن الأنسان يجب أن يؤدى واجبه دون أن يفكر فيما اذا كان هذا الواجب سيجلب اليه الخير أو الشر .

ولقد عمدت أيضا الى دراسة الديانه السيخية (٣) وأود أن أذكر أن اهتمامى هذا كان مبعثه الأول الى دراسة التصوف ، احساس روحى عميق ، فى داخل نفسى ، كان يذهب حينا ، ثم يعود قويا متجددا ، فلما تناولت بعض المسائل الروحية بالدرس والتجربة واطلعت على آفاق جديدة فى الثقافة الاسيوية ، وهى فى جملتها روحية أصيلة ألفيت نفسى مقودا الى استكمال وسائل البحث والدرس . . .

وقد يبدو مثل هذا الولع بدراسة المسائل المتعلقة بالروح ، شيئا يناهض معنى المدنية القائمة اليوم ، وهذا ظن خاطىء . فأن المدنية الحديثة التى ترتكز عظمتها على الآلات ليست كل شىء فى سبيل اسعاد الأنسان كما يقول الفيلسوف الروسى ليون شستوف . وهذا الرجل يندد بمساوىء المدنية الحديثة لما فيها من الاندفاع المطلق نحو اجتناء اللذات المادية ، حتى صار الأنسان فى بعض البيئات الصناعية اشبه بالآلة أو الحيوان تجرد من الصفات العليا . وشستوف يدعو الى تنمية العواطف الانسانية الكريمة ، وتذكية الروح فى سبيل الارتفاع بالانسان ، والحيلولة بينه وبين طغيان الشهوات الدنيا والمطامع الوضيعة حتى لا تفسد روحه وتخمد المشاعر السامية فى نفسه . والواقع ان هذه الدعوة ليست سوى ترديد لما يعتلج فى صدور الكثيرين ممن سئموا طغيان المادة على الحياة ، وعادوا يحنون حنينا قويا الى العناية بالروح ، كما يعنى بالجسم ؛ فأن الأنسان ليكاد لفرط ما يحفه من مظاهر الترف والاغراء يعبد الجسد عبادة وتنية . .

وحدث منذ عامين تقريبا أن اهتممت بالطريقة الروحية التى اتبعها غاندى فى جهاده الوطنى ، وهى التى يسميها السياسيون بالطريقة السلبية ، أقول : إن اهتمامى بفلسفة غاندى جعلنى أتجرد لمعرفة قوة الروح والأطلاع على مايتصل بها وبالجسم . ومن هذه الأشياء التى سبقت ، مجتمعة ، تكونت عندى فكرة قوية لمعالجة هـذا الموضوع ، راجيا أن أكون قد وفقت فيه بعض التوفيق بقدر ما يتسنى ذلك فى رسالة قصـــيرة ، ولست أستطيع أن أدعى اننى بلغت فيـه كل ما ارجو ، فان هذا الادعاء لا قيمة له لنفسى ولا للقارىء ، فأننى متصل بهذه الحياة كالآخرين ، اتصالا ماديا ، هذا الأتصال الذى أشعر بثقله كلما رأيت الانسان كم يكذب ويخدع ، ويحتال ، وينافق .. لكى يعيش . أو بمعنى آخر إن قوة المدنيـة وماديتها قد طغت على ارواحنا طغيانا جارفا ، فأفسدت أكثر النواحى الانسانية فينا ، ونمت الروح الحيوانية فى سائر أعمالنا ، أو كما يقول برناردشو فى كتابه الأخير : « مخاطرات الفتاة السوداء » أصبح الأنسان الحديث عبد الخمر والبندقية .

ولست فى ذلك بالجاحد لقيمة المدنية ، فأن التطور الاجتماعى الذى نلمسه فى القرن العشرين كنتيجة لجهود العلماء المتصلة لخـير

(١) هو الأمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالى ، الفقيه الصوفى الشافعى الاشعرى ولد بطوس وهى بلدة من أعمال نيسابور عام ٤٥٠ هجرية الموافق ١٠٥٨ ميلادية ومات يوم الأثنين ١٤ جمادى الثانى عام ٥٠٥ هجريه الموافق شهر ديسمبر سنة ١١١١ ميلادية وكانت وفاته بطوس ودفن بظاهر الطاران وهى عاصمة طوس .

(٢) ظهر كرشنا قبل المسيح بالفى عام تقريبا ، وهو فى موضع القداسة لدى الوثنيين من الهنود إذ يعتقدون بأنه إله تجلت فيه روح الخالق (سبحانه وتعالى)

(٣) ناناك Nànak مؤسس الديانه السيخية (ولد بقرية تالفندة المودفه باسم انكانا على شاطى نهررا فى)وهو متأثر فى كافة تعاليمه بمذاهب الفقراء الهنود التى كانت منتشرة فى شمال الهند وقد ترجم الدكتور ترومب Dr. Trumpp كتاب السيخيين ويقول الدكتور ترومب أن الصوفيه داخلة على الاسلام من الهند (Hindu pantheism) وهو قول ضعيف الحجة ، لأن الفارسيين أعرق فى أثرهم كما يبدو ذلك فى أشعار الفردوسى والنظامى وحافظ ، وما تحمله اشعارهم من المعانى الصوفية القديمة قبلهم ، ومع ذلك فأننا لاننكر تأثير الديانة السيخية فى بعض أشعار الصوفيين من الفرس .

الأنسانية قد أفاد الانسان فى حياته فوائد جليلة ، ولكن الانتفاع شيء والاستمتاع شيء آخر . . واطلاق الشهوات هو طريق الانحدار والانحطاط ، وأننا لنرى اكثر علماء هذا العصر قد شغلوا جميعا على الرغم من اختلاف اتجاههم فى البحث وتباين ثقافاتهم بتوحيد القوى الانسانية ، والتغلب على الشهوات التى تثير فى النفس التطلع إلى القهر والاذلال والاستعمار والاستغلال والتمرد على الامم الصغيرة الوادعة كما يتمرد الرأسمالى على العامل.

إن التصوف رياضة نفسية عنيفة ، ليس من السهل أن يروض الانسان نفسه عليها ، بل إن وضع المدنية لا يكاد يجعلنا نرى فى الصوفية المطلقة كل الخير ، وخاصة لمن تقتضيه الحياة أن يعيش فيها كعضو عامل منتج ، إنما يعنى أكثر المشتغلين بالتصوف فى هذا العصر بانقاذ الروح كجوهر

وقد قسم العلامة توماس باتريك هيوز صاحب الموسوعة الاسلامية The Dictionary of Islam حدود الصوفية الى تسعة أقسام أهمها :

إن الله فى كل شيء ، وكل شيء مستمد منه سبحانه ، وأن كل شيء مرئى أو غير مرئى خاضع لقدرة الله ، وأن هناك مقاومة بين الروح والجسد ينهيها الموت . فيذهب الجسم، أما الروح فتبقى . وأساس الاعتقاد عند الصوفيين أن الخلود للروح . ولهذا فانهم يسلكون طريق التعبد والرياضة النفسية تزكية للنفس والخلق ، وتحسينا للشمائل وتبغيضاً فى الدنيا، واستعداداً للرحيل إلى الدار الباقية..حتى تصفو العقيدة وتنقى السريرة وتصفى من أكدار التكلف والنفاق . ومثل هذه الرياضة تتطلب الخلوة والعزوف عن الاشياء البراقة ومجاهدة النفس وتصعيد الغرائز والارتفاع بالفكر الى اسمى مكانة، وقدقال الامام الغزالى فى ذلك :

« . . ثم دخلت الشام وأقمت فيه قريباً من سنتين لا شغل لى إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة اشتغالا بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى،كما كنت حصلته من علم الصوفية ، وكنت أعتكف مدة بمسجد دمشق أصعد منارة المسجد وأغلق بابها على نفسى، ثم تحرك بى داعية فريضة الحج والاستمداد من بركات مكة والمدينة وزيارة النبى صلى الله عليه وسلم بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه وسلم ، ثم سرت إلى الحجاز ثم جذبتنى الهمم ودعوات الأطفال الى الوطن ، وعاودته بعد أن كنت أبعد الخلق عن أن أرجع إليه »

وللتصوف مراحل لا بد أن يجتازها الصوفى مرحلة وراء مرحلة ، وليس من السهل اجتياز كل منها فأنها تحتاج الى جهد فائق ، وجلد كبير، وقوة مدخرة ، وأهم تلك المراحل :

العبودية والعشق والزهد والمعرفة والوجد والحقيقة والكشف والوصول والفناء . فأذا اشرقت روح الصوفى ، ارتفعت به الى حيث تكشف له السعادة المطلقة ، فيبلغ مرتبة الفناء المطلق للفكرة ، وتفهم سر الحياة والموت ، والصوفى الذى يجتاز تلك المراحل هو الكامل فى إخلاصه وتعبده ، وقلما يصل إليها متصوف ، بل أننا لا نكاد نحصى إلا طائفة صغيرة ممن استطاعوا السمو الى هذه المنزلة أولئك الذين خلت ، نفوسهم من الشوائب وتخلصوا وتطهروا وأقاموا حاجزاً منيعا بين رغباتهم المادية ورغباتهم الروحية العليا .

وهناك وسائل يتبعها المجتهدون فى التصوف أهمها ثلاث : الانجذاب والعبادة والعروج ، ومن يقرأ الشعر الصوفى يذهل لفرط ما يرى . فأن الشعراء الصوفيين يصورون حالتهم النفسية تصويرا رائما . ففى شعرهم من الهيام والوجد والعشق ما يكاد يحسبه القارىء لأول وهلة لشاعر أغرم اغراما افلاطونيا بفتاة . والواقع أن اخدار تلك المعانى لايكاد يختلف عند الأثنين فى شيء ما ، فبينما نرى الصوفى يتجه مخلصا نحو الله بالتوسل والدعاء والابتهال ، نرى الآخر يقدس الجمال فى معناه الاسمى . لاشك أن الصوفى المنصرف عن الدنيا بكل ما فيها . المتجه الى الآخرة اتجاها تاما ، انما يبالغ فى فكرته الى حد الفناء فى اعتناق الفكرة . فاذا اردنا أن ندرس التصوف على أنه تزكية للروح وتنقية له من الشوائب فأن هذا حسن ، ولكن من الخطأ أن يكون الانسان سلبيا بحتا ، فأن الحياة قوامها العمل ، والكتب السماوية كلها تحث على العمل والمثابرة والاجتهاد فى سبيل العيش . بينا نرى التصوف بمعناه الدقيق يدعو الى الزهد المطلق والانكسار فى جهة ضيقة للتعبد والتقشف ، وهذا فى رأينا اخلاص الى حد الجنون بالفكرة والتعصب لها، فاننا لنرى النبى الكريم عليه الصلاة والسلام وهو روح الحب والحنان والتسامح ، قد حمل مصباح الهدى ومشعل الحق وجاهد فى سبيل الله بلسانه ويده ، حتى عمت دعوته ، ولقد كان النبى الكريم يشتغل بالتجارة ولكن ذلك لم يصرفه عن استخلاص نفسه والتوجه نحو الخالق بالعبادة والصلاة ، دون أن يعتكف فى مكان ضيق من الأرض

وأننا لنرى العلماء اليوم ، وخاصة من تشربوا بالثقافة السلافية، يدعون الناس مخلصين الى تطهير نفوسهم وعدم الانغماس فى ملذات المدنية تنزيها لجوهر الروح عن الفساد وخوفا على البشرية من الانزلاق فى مهاوى الشهوات والترف كما ذهبت فى الماضى بعض المدنيات العريقه طعمة لجنون الشهوات والطمع والفساد الاجتماعى .

محمود عزت موسى

حول الاشعاع النفسى

قرأت بأعجاب هذا المقال الممتع الذى دبجه يراع أستاذنا الكبير احمد أمين عن النفوس واشعاعاتها الغامضة المعقدة التى تشعر بها وقد لا نستطيع التعبير عنها، والتى تختلف باختلاف النفوس وتتعدد بتعدد نواحيها وطبائعها . فملك على هذا البحث مشاعرى ألقى بى فى ذلك العالم الروحى الذى يقوم وراء هذا الحجاب الكثيف من المادة، حتى خلت نفسى أسبح فى عالم من الأرواح أو أن فى حجرتى كما يقول الأستاذ « ملايين وأكثر من الملايين من إشعاعات نفسية تشع من السماء ومن الأرض ومن النفوس البشرية ومما لا يعلمه الا الله »

على أننى ما كدت أعود الى هذا العالم المادى وأقرأ المقال بعين الناقد المتدبر وأتحلل من هذا التأثر العميق بشخصية الأستاذ الكبير حتى أدركت السبب الحقيقى لهذا الأثر النفسانى الذى يعزوه الأستاذ الى أشعة تنبعث من النفوس والعقول « لا تقل جمالا عن « إشعاعات النجوم والكواكب » وتختلف فى القوة، أشد من اختلاف المصابيح الكهربائية ، يقول الأستاذ « إن هذا الأشعاع هو السر فى أنك تلقى عظيما فيملؤك أثرا ويملؤك قوة بهيئته، بنبرات صوته، بطريقة تعبيره، بنظراته، بأشاراته، بهزة رأسه، بحركة يديه، فكان فى كل عمل من هذه الاعمال يوصل بينك وبينه تيارا كهربائيا قويا يهزك هزا عنيفا، قد لا يحدثك طويلا وقد لا يكون لكلامه فى الواقع قيمة ذاتية، ولكنه يوقظ نفسك ويحيى روحك وتبقى رنات كلماته فى الأذن الأيام والليالى تعمل عملها فى هدوء حينا وعنف حينا » — كلام بديع يستهوى اللب ويخلب العقل ولكنك اذا أعملت فيه الروية والعقل وباعدت بين نفسك وبين أسلوب الأستاذ الأخاذ وشخصيته الجذابة أدركت غير ما يدرك، ووقفت على سبب آخر لهذا الأثر النفسى الذى يسميه الأستاذ أشعاعا ونسميه نحن: «شعورا بالعجز والضعة»، وذلك أن الانسان لا يتأثر بعظمة عظيم، ولا خطابة خطيب، ولا حديث محدث، الا لسبب واحد لا ثانى له، وهو شعوره بعجز نفسه وانحطاطها عن مستوى هذا العظيم، وهذا الخطيب وهذا المحدث. قد يكون عاجزا أو ضعيفا، وقد يكون قويا أو رفيعا، ولكن شعوره بعجزه وضعته هو على كل حال السبب الوحيد فى اكباره للعظيم وتقديسه للخطيب وأنصاته للمحدث وتأثره بغيرهم من الناس.

قد تكون درة عمر أهيب من سيف الحجاج لدى الناس، ولكن السبب فى ذلك لا يرجع الى أن اشعة قد انبعثت من نفس عمر فغمرت الناس بموجة من الجلال والعظمة . وأن أشعة من نفس الحجاج قد غمرت أجسام الناس بالخوف والرهبة، ولكن السبب هو أن الناس كانوا يشعرون بشىء من الاستكانة أمام بطش عمر وجبروته، فاذا ماذهبوا يحاولون النيل منه وتلمس سيئاته لم يستطيعوا الى ذلك سبيلا، لأنهم يجدون فيه الرجل المتمسك بالشريعة الذى لا تصدر أفعاله عن هوى، وازاء هذا الشعور بالعجز المضاعف أمام هذه الشخصية يحس الناس بشىء من الخشية المشوبة بكثير من التعظيم والأجلال . أما الحجاج فكان الناس يشعرون بكثير من الخوف والهلع أمام سيفه نتيجة لشعورهم بالعجز عن مجاراته فى أسباب بطشه للسلطة المخولة له عليهم، ولكنهم من جهة أخرى كانوا يستطيعون إحصاء ما كان يقترفه من السيآت والمنكرات، وما كان يقدم عليه من الأجرام والظلم، وهكذا كانوا يخافونه ويرهبوا جانبه لشعورهم بالعجز عن مقاومته، ولكنهم كانوا فى الوقت نفسه يكرهونه ويشتد مقتهم له لاعتقادهم بأنه متخلف عنهم فى الرحمة والعدل والانسانية، وبالجملة فأن عمر والحجاج لم تنبعث من نفسيهما أشعة تؤثر فى الناس، ولكن الناس هم الذين خلقوا هذا التأثير بهذا الشعور السلبى الذى استولى على نفوسهم، ولو أن حياتهم الاجتماعية والسياسية كانت تصبغهم بغير هذه الصبغة، ولو أن شعورا بالقوة والعظمة والرفعة استولى على نفوسهم لما ملأت نفوسهم عظمة عمر وجلاله، ولما ضربت عليهم الذلة والمسكنة وانكمشت قلوبهم خوفا ورعبا من الحجاج وسيفه وصولته .

قال الاستاذ : « وحدثنى من أثق به أن الاستاذ جمال الدين الافغانى كان يرتطن بعجمة ولم يكن فصيح اللسان، ولا سلس القول، ولكن تجلس فيشعلك نارا دونها فصاحة الفصيح وبلاغة البليغ، لانها النفس مستودع كهربائى قوى يصعق أحيانا، ويضىء أحيانا، ويدفع للحركة أحيانا » - وهذا أيضا - ينضوى تحت لواء ماقلناه، فقد كان المصريون فى أيام الاستاذ جمال الدين بعيدين عن هذه الحرية الفكرية الغربية، وان كان بعضهم يطمح اليها ولا يجد فى هذا الجو المصرى الخانق الرجعى مسعفا له على بلوغ مأربه، فلما حط الاستاذ رحاله فى هذا البلد، هرع اليه بعض من هذه الفئة العطشى، ولشعورهم بالعجز فى مضمار الفلسفة وما اليها مما كان يلقيه عليهم الاستاذ جمال الدين، ولموقفهم منه موقف الطلبة من أستاذهم كانوا يشعرون برهبة ورغبة فى مجلسه، وتبدو لأعينهم وقلوبهم هذه التعاليم الجديدة التى يتلقونها نارا تلهب النفس وتشعلها

وتتأجج فى جوانبها حتى لتدفع بها الى الثورة ، ولو كان فيهم رجل يأنس من نفسه قوة تدفعه الى الوقوف مع الاستاذ موقف الند للند ، لا الطالب أمام معلمه لتغيرت الحال وأحجم الأستاذ أحمد أمين عن أن يضرب هذا المثل للتدليل على وجود هذا الأشعاع النفسى موضوع مقاله

وان اختلاف تأثير الخطيب باختلاف السامعين والممثلين باختلاف النظارة ، لينهض دليلا على ما نزعمه من أن تأثير الاشخاص فى بعضهم ليس مرجعه الى قوة نفسية تشع من نفس الى أخرى فتؤثر فيها تأثيرا قويا أو ضعيفا ، حسنا أو سيئا ، ولكن هذا يرجع الى شعور النفس المؤثر فيها بتخلفها — بحكم طبيعتها أو العوامل المحيطة بها — عن النفس التى أثرت فيها فى الخطابة أو الكتابة أو ما شاكل ذلك .

من هذا كله نستطيع أن نقول اننا لا نتأثر بعظيم فنرهبه ونرتعد من الخوف بين يديه ، أو خطيب فنصفق له ونحمله على الأعناق ، أو محدث فنرهف آذاننا له ونعجب به ، الا لأننا قابلنا العظيم وفى قرارة نفوسنا من شعور بسموه عنا ، وسمعنا الخطيب ونحن نشعر بأننا عاجزون عن الوقوف مثل موقفه ، والتعبير بمثل تعبيره ، وأنصتنا الى المحدث وقد غمرنا شعور بالقصور عن لباقته ، أو مجاراته فى حججه ، أو الأتيان بمثل حديثه الذى يحمل بين طياته من المذاهب الجديدة والعلوم الحديثة ما نجهل . وليس هذا الأثر ناتجا من صدور أشعة من نفس العظيم أو الخطيب أو المحدث الى نفوس الناس .

وخلاصة القول اننا لا نقول بحدوث تأثير المؤثر من قوة أيجابية تنبعث ، ولكنه يكون بشعور سلبى أو قوة سلبية يحس بها المؤثر فيه حتى ليتوهم أنها آتية اليه من خارج نفسه ، والحقيقة أنها تصدر عن نفسه وتنبع منها .

الاسكندرية — عبد الحليم محمد حموده

(الرساله) من أين يأتى شعور العجز و الضعة ، وقد تلقى الرجل لأول مرة فيثير فيك شعور البطولة والأعجاب ، بل قد تراه او تسمعه وقد سبقت الى أذنك أخبار وضعت من شأنه ، وحطت من قدره ، فما هو إلا أن تراه وتسمع له حتى يتغير رأيك ويختلف تقديرك . هل سمعت قول القائل : « تسمع بالمعيدى خير من أن تراه » أو هل علمت أن الناس لما رأوا الحجاج يصعد على المنبر أخذو الحصى ليحصبوه ، فما استهل خطبته حتى تساقط الحصى من ايديهم وهم لا يشعرون ؟ ما ذلك إلا الأشعاع

لم لا تقول الشعر (١) ؟

للدكتور عبد الوهاب عزام

كتبت الىّ أيها الأخ الكريم تسألنى (لماذا صمتّ بعد تغريد ، ونضبت بعد فيض ، وسكنت بعد المرح ، واكتأبت بعد الفرح ؟ وما هذا الوجوم والاطراق بعد التهلل والاشراق ؟ أين قلبك الهدار ، وقلمك المكثار ؟ وأين شعرك الشاعر ، ونظمك الساحر ؟ ليت شعرى ، وقد أمكنك القول ، لم لا تقول الشعر ؟)

يا أخى بماذا أجيبك ؟ لقيت الحياة مبتسما ، ونشأت مترنما . أطالع تباشير الصباح مرحا كالأطيار ، مترنحا مع الاشجار ، تروقنى ألوان الأفق ، وتشدهنى طلعة ذكاء فى مواكب الضياء ، أراقب الاضواء ، فى الصباح والامساء ، وأساير الظلال ، بالغدو والآصال . وأخلو الى القمر أشرب ضياءه ، وأحس فى نفسى صفاءه ، وأقول :

البر والبحر ذوبٌ من سنا قمر ترددَ الطرف فيه فهو حيران

وأتأمل الأزهار فى شعاعه ، وأقبّل الورد فى لألائه . وأساير النيل أجرى مع مائه . وأضطرب مع أمواجه ، وأقف على البحر فرحا بآذيّه المهتاج ، معجبا بسلاسل الامواج ، أرقب العراك المتواصل ، بين الماء والساحل

وكم طربت لزقزقة العصافير فى نور الصباح ، وتنزّيها على متون الرياح ، وضحكت لبكور الغراب ، سابحا فى الضباب .

وكم فتننى الوجه الجميل والخلق النبيل فقلت :

فى كل حسن أرى سرّا يجاذبنى نفسى ، ومالى بهذا السر عرفان

أرى الجمال فتطبعه زجاجة العين على صفحة القلب فاذا هو على لسانى وقلمى . فانطلق قائلا معجبا . ومنشداً مطرباً ، وكل شيء يبعث الأمل ، ويحدو الى العمل وكأن القضاء طوع الخيال ، وليس فى الدنيا محال . وكأن الانسان يستطيع أن ينحت الجبال بقلمه ، وينزف البحر بفمه . والمستقبل وضاء ، وكل ما فى العالم ضياء .

(١) كتب الى بذلك أحد الاصدقاء فاجبته بهذه الكلمة .

ثم نفذ الفكر الى ماوراء الظاهر ، وتطلع الى مافى السرائر ، وجاوز القشر الى اللباب ، وخاض الضحضاح الى العباب ، وكشف المجاز عن الحقيقة، وطالع ضمائر الخليقة . فانبهم العالم واستعجم ، فاذا كل شيء مبهم ، فالفكر فيما وراء الحجب جائل ، وكل سرّ هنالك هائل . الضوء هنالك ضباب ، والبصر حجاب .

فامحّت الأشكال وخفيت الالوان ، وعيّت الريشة فى يد الراسم ، وحار القلم فى بنان الشاعر ، وبُهت المنطق دون البيان ، وجمد اللفظ على اللسان . ويبقى السرّ المحجّب آبيا على كل مطلب ، أو يبصّ من الحقيقة حاجب يعظم عن ضيق الالفاظ ويكبر على سلاسل القوافى والاوزان .

ورحم الله الشاعر سنائى اذ يقول : « رجعت عما قلت اذ ليس وراء الالفاظ معان ، وليس لما ندرك من المعانى ألفاظ .

أهم بالامر الصغير فاذا هو حلقة فى سلسلة ، وطريق الى كل معضلة ، وجزء من كل حقيقه هائلة .

وأحاول الأمواج فتنفتح عن الاعماق ، فيضل الفكر وتزيغ الاحداق . وأعالج حمرة الشفق ، فاذا وراءها خبَيئات الأفق ، واذا الأفق صلة الأرض والسماء . وكيف بما فيهما من حقائق ــ وكيف بما استسر من أسرار الخالق ؟

وأهم بالكلام عن الحيوان فاذا أنا فى لجة الحياة ، وهى السر العجاب ، وسطها فوق الأرض وطرفاها فى التراب .

وأريد أن أصف الذرة فاذا هى والشمس سواء ــ باهرة الحقيقة رائعة الضياء . أنظر الى الصغير فيكبر ، وأعمد الى الواضح فيستعجم

والأمل تكسرت أمواجه على صخور الحقائق ، وضل سرابه فى صحارى الحياة

ياأخى : هاأنا على ساحل المحيط الأعظم حائر الطرف بين اللجة والشاطىء ، مقسم الفكر بين الظاهر والباطن . ولست أدرى أأبقى صامتا مبهوتا ، أو أهجم على الأهوال ، واغوص فى الأعماق ، ثم أبين عن عرفانى وجهلى ، وإدراكى وعجزى ، أو أرجع الى العهد القديم أصف الألوان والاشكال والضياء والظلال . . . . ؟

الحمى داء ودواء

تحت هذا العنوان وفى العدد الرابع عشر من مجلة الرسالة الغراء عقد العالم البحاثة الدكتور النابغة أحمد زكى وكيل كلية العلوم بالجامعة المصرية فصلا فيما وبحثا ممتعا . عن الحمى وفوائدها ، قال فى بداءته « الحمى من قديم الزمان عرض مخوف وطارق مرهوب وكثيرا ما كانت رسول الموت وقائد الحى تحدو ركبه الى وادى الفناء . ولكن فى هذه الأيام القريبة الماضية . نشأت فكرة أخذت تحل محلا ذا بال فى رءوس البحاث من الأطباء أو فى رءوس القليل منهم الذين لا تزعجهم غرابة الخاطر ، ولا يصرفهم عن الأمر خروجه عن المألوف . ومحصول هذه الفكرة أن الحمى ذلك العدو القديم للحياة ، قد تنقلب ، أو يمكن تأليفها وقلبها الى صديق نصير ، فبدل أن تكون عونا على الداء ، تصبح عونا على الشفاء ، فى بعض الأمراض التى عجز عنها الطب وحار فيها الأطباء »

ونحن نقول للدكتور الفاضل بكل تواضع واحترام أن هذه الفكرة التى انتهى اليها الباحثون والاطباء الغربيون اليوم . وقف عليها أطباء العرب من عشرات القرون الماضية ، حينما كان آباء هؤلاء العلماء يسكنون المغاور ، ويلجأون الى الكهوف . فقد جاء فى الصفحة الأولى بعد السبعين من كتاب « زاد المعاد فى هدى خير العباد للامام الحافظ أبى عبد الله بن نعيم الجوزى » ما يأتى : « وقد ينتفع البدن بالحمى انتفاعا عظيما لا يبلغه الدواء ، وكثيرا ما تكون الحمى سببا لانضاج موادغليظة لم تكن تنضج بدونها وسببا لتفتح سدد لم تكن تصل اليها الأدوية المفتحة . وأما الرمد الحديث والمتقادم فانها تبرىء أكثر أنواعه برءا عجيبا سريعا ، وتنفع من الفالج واللقوة والتشنج الامتلائى وكثير من الأمراض الحادثة عن الفضول الغليظة ، وقال لى بعض فضلاء الاطباء أن كثيرا من الأمراض نستبشر فيها بالحمى كما يستبشر المريض بالعافية ، فتكون الحمى أنفع فيه من شرب الدواء بكثير ، فانها تنضج من الاخلاط والمواد الفاسدة مايضر بالبدن ، فاذا أنضجتها صادفها الدواء متهيئة للخروج بنضاجها فأخرجها فكانت سببا للشفاء »

وفيما تقدم دليل جديد يشهد بما بلغه العرب فى الطب من المنزلة العالية والمكانة التى لاتدانى ، كما يشهد لهم بفضل السبق الى كثير من نظرياته الحديثة التى ينسبها علماء اليوم الى أنفسهم زورا وبهتانا ، والفضل كل الفضل للمتقدمين ؟

محمد محمود الجندى
طالب بالتجارة العليا بالقاهرة

والقود ــــ سودان

تــين «TAINE»

منذ سنوات خلت ، نشرت الصحف خبر احتفال الفرنسيين فى بهو السربون ، بذكرى الفيلسوف الفرنسى الكبير « تين » وقد كان الاحتفال فخما للغاية ، يناسب مكانة الفيلسوف العظيم ؛ وقد رأسه المسيو ادوار هريو وزير المعارف والفنون الجميلة ، وشرح بمحاضرته التى القاها منهج تين فى النقد الادبى ، وفى العرض التاريخى . ويرى بعضهم ان مؤلفات تين خير ما أخرج التفكير الفرنسى فى النصف الاخير من القرن التاسع عشر ، ويرون أنه أبرع نقادة فى ذلك القرن او قد كان تين فوق ذلك فنانا بارعا يعشق فن الموسيقى ، وأما نظرياته الفلسفية فانها تميل على الاغلب الى الناحية المادية .

***

العبقرية الحق هى التى تعمل ولا تشبع ، وتجد فى الالم لذة ، وفى الموت من أجل العمل حياة ، ولا تحسب يوماً انها وجدت ماتنشد وتصبو اليه ! كان تين لا يكل ولا يتعب ، بل كان يقوم فى الليل ليستأنف عمله ، وكان « اسكوت » الكاتب الانجليزى الكبير مصنوعاً من العمل ، كما كان يقول ، وحسب « بتهوفن » انه لم يبرز مايصبو اليه ، ومات « فولتير » وهو معتقد أنه لم يعمل عملا واحدا يرضى ذوقه !

العبقرية الحق ، هى التى تخلق وتنشىء وتنظر دائما الى الممكن والى المستقبل ، هى باذرة بذور الخير والحب والطيبة والجمال فى الوجود ، والطامحة دائما الى الاحسن ، والآخذة بالناس من الظلمات الى النور ، ومن العبودية الى الحرية ، ويخلد العبقرى بقدر ما تترك رسالته من أثر على وجه البسيطة ؛ فكلما كانت رسالة العبقرى انسانية كان الاعجاب بها شديداً والثناء عليها قويا .

ولد هيبوليت أدولف تين فى ٢١ ابريل سنة ١٨٢٨ بفوزييه بمقاطعة الوارون فى فرنسا ، وكان أبوه من أسرة قليلة المال قصيرة الباع . وكان لأبيه (جان باتيست تين) اتصال بالقضاء ، لذلك استطاع تين ان يتلقى عليه النظم والقوانين الى جانب دراساته بمدرسة (مسيو بيرس) الصغيرة . حتى بلغ الحادية عشرة من عمره ، وقد مرض أبوه فأرسله فى سنة ١٨٣٩ الى مدرسة دينية فى « رتل » أقام بها ثمانية عشر شهراً ، وبعد وفاة أبيه سافر الى باريس فالتحق بمعهد « ماتيه » وكان طلاب هذا المعهد يدرسون بكلية بوربون College Bourbon وفيه ظهرت بوادر كفايته النادرة .

لقد امتاز تين لأول دخوله المدرسة بمقدرة على العمل مدهشة ، وبجلد متين لايقل اثارة للدهشة . وكان كثير التحصيل ، كثير التعليق على مايحصل ، كثير التفكير فيه ، مما جعل له على أصدقائه جميعاً نفوذاً معترفاً به ، اعترافهم بفضله ومقدرته على الكتابة نظماً ونثراً فى اللغتين الفرنسية واللاتينية . وبعد انتهاء دراسته الثانوية أنتقل الى مدرسة المعلمين L'ecole Normale وفيها قرأ أفلاطون ، وأرسطو . ودرس الانجليزية فبرع فيها وأتقن آدابها . وقد لاحظ عليه أساتذته مبالغته فى الحرص على السلوك بالمنطق مسلكا رياضياً والوصول به دائماً الى قاعدة ثابتة على نحو ما يصل الرياضيون فى مسائل الحساب والهندسة والجبر . وقد تنبأ له أساتذته بمستقبل باهر ، وقالوا سيكون تين أستاذاً ممتازاً ، بل سيكون أكثر من ذلك ، وسيكون عالماً من الطراز الأول ، وسيكون شعاره شعار سبينوزا Spinoza « يعيش ليفكر » .

ومع ماعليه تين من رقة فى الخلق عظيمة ، ومن طباع غاية فى الطيبة ، كان لذهنه قوة جبارة لاتلين لا يستطيع أن يكون لأحد على تفكيره أى تأثير . وجماع مايقال عن « تين » أنه ذهنية جبارة منقطعة النظير !

كان تين أقوى أثراً فى نشر الفلسفة الواقعية Poxitivisme من صاحبها أغست كونت Auguste Comte نفسه ، وبرغم تثبيته قواعـــد هذه الفلسفة الوضعية فى ذهن أهل عصره والعصور التى خلفته . قد فتح لها ميادين جديدة فى الفن وفى الأدب وفى الشعر ، وفى صور نشاط العقل الانسانى ، وفى النفس الانسانية ، مما جعل للعلم الوضعى وللفلسفة الوضعية من متانة الأركان مالا يزال حتى اليوم وطيداً قوياً غاية القوة ، برغم موجات الروحية (والتيوزوفية) وغيرها مما سبق الحرب وشجعته الحرب ، ومما لايستطيع أن يقاوم - حتى فى الميادين الفلسفية البحتة — تيار العلم الجارف ، الذى يدل الناس كل يوم على أن العلم إذا أخطأ فى تقرير نتائج معينة ، فهو وحده قمين باصلاح هـذا الخطأ من طريق الاستقراء والملاحظة والتجارب ، وما يترتب على هذه من تبويب ينتهى الى استنباط القوانين العلمية الصحيحة التى يمكن أن تكون أساساً لأرتكاز الفلسفة الواقعية الصحيحة . فهذا الرجل الذى حاول ، ونجح فى محاولته ، هدم الفلسفة الكلامية التى كان الاستاذ فيكتور كوزون Victor Cousin عميدها فى عصره ، والذى حاول ونجح فى أن يقر الى جانب التفكير الواقعى Positive ، المذهب الجبرى dèterminisme

وأن يطلق هذا المذهب على الانسان ويخضعه له ، بمقدار ماتخضع له الافلاك والموجودات كلها — هذا الرجل كان صاحب أسلوب فى الكتابة له من البهر ما يسحرك كما لو كنت تستمع الى الحان أركسترا بيتهوفن ! ولعل أبرع ما كتبه تين فى الناحية الأدبية ، هو ما كتبه فى الوصف والسياحة ، ولقد بلغت براعة الوصف فيهما مبلغا قل أن يجاريه فيه كاتب .

وليس فضل تين مقصوراً على فلسفته وأدبه فحسب ! فهو الى جانب ذلك مؤرخ من أكبر المؤرخين لم يقتصر على كتابة تاريخ بلاده ، بل تناول عصر ماقبل الثورة ، وتناول عصر الثورة والعصور التى بعدها ، وتناول بحوثا أخرى فى التاريخ القديم وفى التاريخ الحديث ، تناولها بدقة فى العبارة، ودقة فى البحث ، وقوة فى الأسلوب ، جعلت له كل هذه المكانة التى تسنم ذروتها فى عصره ، وكل هذا المجد الذى يشهد له به اليوم حتى ألد خصوم نظرياته . ورسائله فى التاريخ وفى النقد جعلت منه نقادة معترفاً بنبوغه وبفضله ، وقد أقامت له مذهباً فى النقد يتسق ومذهبه فى الأدب ، وفى التاريخ ، وفى الفلسفة ، وفى كل ماتناوله من مباحث ؛ والذى يقرأ كتابه « الفلاسفة الانشائيون فى القرن التاسع عشر » وكتبه « رسائل فى النقد وفى التاريخ » يرى اتجاه مجهوده العقلى فى السنوات الخصبة من حياته ، ويرى المجهود الهائل الذى تناول به بحث اليونانيين القدماء، وكتاب فرنسا وفلاسفتها وكتاب انجلترا ومفكريها ، تناول ذلك فى دقة واحاطة قل نظيرهما . يعرض امامك فكرة كل كاتب وفلسفته واسلوبه ويحلل ذلك ويرده للبيئة وللجنس اللذين نشأ الكاتب فيهما ، ويدلك على مايراه النقاد ويراه هو فى الكاتب وفكرته من قوة ومن ضعف ، ومن كمال ومن نقص . ومن دقة فى بلوغ الغاية التى قصد اليها الكاتب ، أو اضطراب فى نهج السبيل الى تلك الغاية ، وهذه طريقته التى سار عليها فى النقد ، وهى الطريقة العلمية الصريحة التى لاتعرف المين ولا المواربة ، ولاتعرف مذاهب الشك والتردد ، والتى تقفك من كل كاتب ومن كل موضوع على خلاصة الموضوع وعلى صورة واضحة من الكاتب على نحو ما رآه تين : أول أستاذ «لتين» أثر فى تفكيره اعمق الآثار وهو « كوندياك » . وتين لا يفهم كيف ينسى فى فرنسا منهج كوندياك الذى هو « أحد المثل العليا للذهن البشرى » ويستبدل بفتات الاقتباس والمزج ، ثم هو يأخذ على كوزين — Cousin وتلاميذه قبل كل شىء انحلال المنطق ، لأنهم يرون انهم فلاسفة ، ولكنه يرى أنهم خطباء يعنون بالأثر الذى يحدثونه أكثر مما يعنون بالحقائق التى يبحثونها ! ثم يقول: انه تجب العودة الى كوندياك وهو ذهن لا نظير له فى الاستنارة والدقة ، وقد وهب كل المسائل العظيمة أجوبة ثارت عليها التقاليد الكلامية المبعوثة ، ونظريات ماوراء الطبيعة الألمانية فى فرنسا فى بدء القرن التاسع عشر ! بيد انها سوف تعود بالرغم من كل هذا ، ويعود « تين » بدوره قدوة فى استئنافها والتمسك بها .

وكما ان تين كان تلميذاً لكوندياك كان كذلك تلميذاً لأسبينوزا Spinoza وهيجل Hegel فقد شعر مثل «جيته» بسمو الفكرة الاسبينوزية ، ورأى أن مفكراً لايستحق أن يسمى بالفيلسوف مالم تطبع نظريته الخاصة بطابعها. واسبينوزا هوالذى أوحى إليه باعتبار الوجهين : الوجه الطبيعى ، والوجه الخلقى، صورتين لحقيقة جوهرية واحدة ، وقال تين عن هيجل Hegel متحمساً : « ليس بين جميع الفلاسفة من سما الى ماسما إليه « هيجل » او من تدنو عبقريته من ذلك الصرح الشامخ ! فهو مزيج من اسبينوزا وارسطو » . وقد اتسع مدى عمل « تين » الفلسفى والتاريخى بالاستناد إليه .

يقول « تين » عن الفلسفة الانجليزية انها قد انتهت الى اعتبار الطبيعة اجتماعاً للوقائع ، اما الفلسفة الالمانية فترى فيها مجموعة من القوانين ، فاذا كان ثمة مكان بين الامتين فهو مكاننا نحن معشر الفرنسيين ! لقد وسعنا الآراء الانجليزية فى القرن الثامن عشر ، واستطعنا فى القرن التاسع عشر ان نضبط الآراء الالمانية ، ومهمتنا الآن هى تهذيب الذهنين احدهما بالاخر ومزجهما فى ذهن واحد ، وان نصوغهما فى أسلوب يتذوقه العالم كله ، وان نخرج منهما بذلك الذهن العام .

ولقد عين تين مدرساً فى وزارة المعارف بمدرسة « نفير » فى أول سنة ١٨٥١ الدراسية، لكنه لم يمكث فى هذه المدرسة الاشهورا نقل بعدها الى مدرسة دونها فى الدرجة ، وذلك لاغراض سياسية . ومن ثم نقل الى «ابوانيه» ، ومنها نقل مساعد مدرس الى بزانسون فى سبتمبر ١٨٥٢ . وعلى رغم تنقلاته الكثيرة ، قد وضع رسالة عن المشاعر Les Sensations ورسالة لاتينية تقدم بها الى السوربون لنيل جائزة الفلسفة ، ولما كانت هذه الجائزة قد الغيت فقد اراد تين ان ينال اجازة الادب العليا Agregationes — lettres ولكن رسالته لم تقبل، فوضع رسالة عن لافونتين La Fontaine فنال بها دكتوراه الآداب فى ٣٠ مايو سنة ١٨٥٣ ، وعلى أثر حصوله على الدكتوراه اقترحت الاكاديمية الفرنسية موضوعاً لجائزة تمنح فى سنة ١٨٥٥ على أحسن رسالة تكتب عن « تيت ليف » الكاتب والمؤرخ الرومانى الكبير ، فعرض لها « تين » وكتبها ثم تقدم بها فكانت الأولى بين كل الرسائل التى قدمت اليها !

وكان تين قد رشح نفسه سنة ١٨٦٢ لتدريس الادب فى مدرسة الهندسة Polytechnicque ولكن مسيودى لمونى انتخب بدلا منه ، على ان وزير الحربية عينه فى مارس من السنة التالية ممتحنا فى التاريخ وفى اللغة الالمانية بمدرسة سان سير Saint-cyr الحربية . وفى سنة ١٨٦٤ عين مدرسا لتاريخ الفن والجمال فى كلية الفنون الجميلة ؛ فكان تعاقبه فى وظائف الدولة سببا لاثارة الخوف فى نفس رجال الدين . مما دفع المونسينير دوبانلوا الى كتابة منشور وجهه الى الشبيبة والى الآباء يطعن فيه على تين Taine ورنان Renan ولتريه Leterrier ونددد فيه بنزعاتهم الالحادية مما كاد يزعزع مركز تين لو لا تدخل البرنسيس ما تيلدا وبسط حمايتها عليه . وفى سنة ١٨٦٤ قدم بعض كتبه الى الاكاديمية ليحصل على جائزة بوردان . فانبرى له مونسينير دوبانلوا من جديد ، واشترك معه آخرون ليحولوا بينه وبين الجائزة . على أن المسيو جيزو دافع عن تين بكل اخلاص واستمرت المناقشة أمام الاكاديمية فيمن يستحق الجائزة ثلاثة أيام متوالية ، استقر الرأى بعدها على أن الجائزة لا تمنح لأحد ما دامت لا تمنح لتين ! . . . على ان هذه الخصومات المتتابعة وهذا التجنى على ذلك الكاتب الفيلسوف لم يحل دون حصوله على وسام اللجيون دونور Légion d'honneur فى سنة ١٨٦٦ وعلى شهادة D Ç. L. من جامعة اكسفورد بعد محاضرات القاها بها عن راسين Racine وكورنى Corneille فى سنة ١٨٧١ . وتزوج تين فى سنة ١٨٦٨ فلم يغير زواجه شيئاً من حياة الجد والعمل التى كان يحياها ، على أنه منذ سنة ١٨٧٠ على أثر الحرب الفرنسية الألمانية قد حز فى نفسه ألم هزيمة بلاده فأجهد نفسه فى أن يقف على أسباب ضعفها ، وكان هذا هو الدافع الذى دفعه الى وضع كتابه الاكبر (أصول فرنسا الحديثة) الذى عمل فيه منذ سنة ١٨٧٠ والذى اضطر من أجله أن يتخلى عن مهنة التدريس منذ سنة ١٨٨٤ لينقطع له انقطاعاً تاماً . وقد توفى فى الخامس من شهر مارس سنة ١٨٩٣ وهو فى الخامسة والستين من عمره

وقد القى الاستاذ ليفى بريل المحاضر بالسوربون خطابا فى شرح نظريات تين الفلسفية بمناسبة الاحتفال المئوى لميلاد (تين) نترك الاستاذ نفسه يحدثنا عنه اذ يقول: « لنذكر اليوم القاب مجده ومناحى نبوغه اولئن كان علم النفس وعلم الاجتماع قد وصلا بفروعهما المختلفة فى فرنسا الى ما وصلا اليه من التقدم فان تين هو أحد الذين يرجع اليهم الفضل فى ذلك ، وقد كان من الممكن ان يترك عمله ، ولكن الروح الذى بعثه ما زال يضطرم الى اليوم ، وكان الطريق الذى سنه هو طريق الرشاد ، وان فضله ليبدو اشد بهاء ، اذا ذكرنا الوسط الفلسفى الذى تخرج منه ، ولكن تين غلبت عليه روح الفلسفة الحق فاعتزل اولئك المبشرين بأفقر ضروب التحكم ، وبحث عن الحقيقة دون أن يعنى بادىء بدء بما اذا كانت ستتفق وهذه العقيدة أو تلك ، أو هذا الحزب أو ذاك . وبذا وصل تين بين التقاليد الفلسفية للقرن الثامن عشر ، وهى التقاليد التى اعتقد الجيل الذى قبله انها قطعت نهائيا . وهكذا كان مستحقاً لاعجاب كل مفكر حر فى عصرنا ، فلنحمده لأنه جاهد من أجل مثل اعلى للعالم والفلسفة النزيهة . ولعل هذا خير مديح كانت تتأثر به عزته . ولقد أبى أعز أصدقائه «أميل بوتمى» الذى ساعده على تأسيس المدرسة الحرة للعلوم السياسية والذى كان اميناً لاعمق اسراره ، ان يكتب على قبره سوى هذه العبارة البسيطة : « أحب الحقيقة قبل كل شىء » .

حلب — صبحى العجيلى

٧ ـــ بلاط الشـــهداء

بعد ألف ومائتى عام

للأســـتاذ محمد عبد الله عنان

(تابع)

قال ابن عبد الحكم وهو من اقدم رواة الفتوح الاسلامية وأقرب من كتب عن فتوح الاندلس ما يأتى :

« وكان عبيدة (يريد والى افريقية) قد ولى عبد الرحمن بن عبد الله العكى على الاندلس وكان رجلا صالحا فغزا عبد الرحمن افرنجه وهم اقاصى عدو الاندلس فغنم غنائم كثيرة وظفر بهم .. ثم خرج اليهم غازيا فاستشهد وعامة اصحابه، وكان قتله فيما حدثنا يحي عن الليث فى سنة خمسة عشر ومائة » (١) . ولم يذكر الواقدى والبلاذرى والطبرى وهم أيضا من أقدم رواة الفتوح شيئا عن الموقعة وقال ابن الاثير فى حوادث سنة ثلاثة عشر ومائة مرددا لرواية ابن عبد الحكم — « ثم إن عبيدة استعمل على الاندلس عبد الرحمن بن عبد الله فغزا افرنجه وتوغل فى أرضهم وغنم غنائم كثيرة. ثم خرج غازيا ببلاد الفرنج فى هذه السنة (اعنى ١١٣ هـ) وقتل سنة اربع عشرة ومائة وهو الصحيح ، فقتل هو ومن معه شهداء» (٢) وينسب ابن خلدون الموقعة خطأ لابن الحبحاب والى مصر وافريقية فيقول : « وقدم بعده (اى بعد الهيثم) محمد بن عبد الله بن الحبحاب صاحب افريقية فدخلها (أى الاندلس) سنة ثلاث عشرة وغزا افرنجه وكانت لهم فيهم وقائع واصيب عسكره فى رمضان سنة اربع عشرة ، فولى سنتين » (٣) ولدينا من الرواية الاندلسية ما قاله صاحب «أخبار مجموعة» عند ذكر ولاة الاندلس وهو — « ثم (أى وليها) عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى وعلى يده استشهد اهل البلاط الشهداء ، واستشهد معهم واليهم عبد الرحمن » (٤) . ونقل الضبي فى ترجمة عبد الرحمن ما ذكره ابن عبد الحكم عن الموقعة (٥) . وقال ابن عذارى المراكشى « ثم ولى الاندلس عبد عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى فغزا الروم واستشهد مع جماعة من

(١) فتوح مصر واخبارها ص ٢١٦ و ٢١٧ (٢) ابن الاثير — ج ٥ ص ٦٤

(٣) ابن خلدون — ٤ ص ١١٩ — وفى نسبته الموقعة لمحمد بن الحبحاب خطأ بين لان ابن الحبحاب كان عامل مصر ولم ينتدب لولايته افريقية سوى سنة ست عشرومائة . ولم يول هو او ولده ، الاندلس قط (راجع ابن عبد الحكم ص ٢١٧)

(٤) اخبار مجموعة فى فتح الاندلس (مدريد سنة ١٨٦٧) — ص ٢٥

(٥) بغية الملتمس (مدريد سنة ٨٤) رقم ١٠٢١

عسكره سنة ١١٥ بموضع يعرف ببلاط الشهداء » (١) ، وقال فى موضع آخر ، ثم ولى الاندلس عبد الرحمن هذا (أى الغافقى) ثانية وكان جلوسه لها فى صفر سنة ١١٢ ، فاقام واليا سنتين وسبعة أشهر وقيل وثمانية أشهر ، واستشهد فى أرض العدو فى رمضان سنة ١١٤ (٢) . وقال المقرى فيما نقل - « ثم قدم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى من قبل عبيد الله بن الحبحاب صاحب افريقية فدخلها (أى الأندلس) سنة ثلاث عشرة وغزا الافرنجة وكانت له فيهم وقائع وأصيب عسكره فى رمضان سنة أربع عشرة فى موضع يعرف ببلاط الشهداء وبه عرفت الغزوة (٣)» ونقل فى موضع آخر » وذكر أنه قتل (والاشارة هنا خطأ الى السمح بن مالك) فى الواقعة المشهورة عند أهل الاندلس بوقعة البلاط، وكانت جنود الافرنجة قد تكاثرت عليه فاحاطت بالمسلمين فلم ينج من المسلمين أحد . قال ابن حيان ، فيقال ان الآذان يسمع بذلك الموضع الى الآن « ونقل عن ابن حيان » قال دخل الاندلس (أى عبد الرحمن) حين وليها الولاية الثانية من قبل ابن الحبحاب فى صفر سنة ثلاث عشرة ومائة وغزا الافرنج، فكانت له فيهم وقائع جمة الى أن استشهد وأصيب عسكره فى شهر رمضان سنه ١١٤ فى موضع يعرف ببلاط الشهداء، قال ابن بشكوال: «وتعرف غزوته هذه بغزوة البلاط» (٤)

هذه الفقرات والاشارات الموجزة التى تكاد تتفق جميعا فى اللفظ والمعنى هى ما ارتضت الرواية الاسلامية أن تقدمه الينا فى هذا المقام ، وان كان فى تحفظها ذاته ما ينم كما قدمنا عن تقديرها لرهبة الحادث وخطورته، وبعد آثاره. وإذا كان صمت الرواية الاسلامية تمليه فداحة الخطب الذى أصاب الاسلام فى سهول تور فأن الرواية النصرانية تفيض بالعكس فى تفاصيل الموقعة افاضة واضحة ، وتشيد بظفر النصرانية ونجاتها من الخطر الاسلامى، وترفع بطولة كارل مارتل الى السماكين. وتذهب الرواية النصرانية، ومعظم كتابها من الأحبار المعاصرين. فى تصوير نكبة المسلمين الى حد الاغراق فتزعم ان القتلى من المسلمين فى الموقعة بلغوا ثلاثمائة وخمسة وسبعين الفا فى حين أنه لم يقتل من الفرنج سوى الف وخمسمائة . ومنشأ هذه الرواية رسالة أرسلها الدوق أودو الى البابا جريجورى الثانى يصف فيها حوادث الوقعة وينسب النصر لنفسه، فنقلتها التواريخ النصرانية المعاصرة واللاحقة كأنها حقيقة يستطيع العقل أن يسيغها . بيد

(١) البيان المغرب — ١ ص ٣٧ (٢) البيان المغرب — ٢ ص ٢٨

(٣) نفح الطيب — ١ ص ١٠٩

(٤) نفح الطيب — ٢ ص ٥٦

أنها ليست سوى محض خرافة . فان الجيش الاسلامى كله لم يبلغ حين دخوله الى فرنسا على اقصى تقدير اكثر من مائة الف (١) والجيش الاسلامى لم يهزم فى تور ولم يسحق بالمعنى الذى تفهم به الهزيمة الساحقة. ولكنه ارتد من تلقاء نفسه بعد أن لبث طوال المعركة الفاصلة يقاتل حتى المساء محتفظا بمراكزه امام العدو ولم يرتد اثناء القتال ولم يهزم . ومن المستحيل ان يصل القتل الذريع فى جيش يحافظ على ثباته ومواقعه الى هذه النسبة الخيالية . ومن المعقول ان تكون خسائر المسلمين فادحة فى مثل هذه المعارك الهائلة ، وهذا ما تسلم به الرواية الاسلامية ولكن مثل هذه الخسائر لا يمكن ان تعدو بضع عشرات الالوف فى جيش لم يزد على مائة الف . واسطع دليل على ذلك هو حذر الفرنج واحجامهم عن مطاردة العرب عقب الموقعة وتوجسهم ان يكون انسحاب العرب خديعة حربية ، فلو ان الجيش الاسلامى انتهى الى انقاض ممزقة لبادر الفرنج بمطاردته والاجهاز عليه ، ولكنه كان ما يزال من القوة والكثرة الى حد يخيف العدو ويرده (٢) .

على ان خسارة المسلمين كانت بالاخص فادحة فى نوعها تتمثل فى مقتل عبد الرحمن ونفر كبير من زعماء الجيش وقادته . بل كان مقتل عبد الرحمن افدح ما فى هذه الخسارة ، فقد كان خير ولاة الأندلس وكان أعظم قائد عرفه الاسلام فى الغرب ، وكان الرجل الوحيد الذى استطاع بهمته وقوة خلاله أن يجمع كلمة الاسلام فى أسبانيا فكان مقتله فى هذا المأزق العصيب ضربة شديدة لمثل الاسلام ومشاريع الخلافة فى افتتاح الغرب (٣)

(١) وهذا التقدير تاخذ به بعض المؤرخين الغربيين ايضا مثال ذلك المورخ الفرنسى ميزرى Mezerai

(٢) قال ادوار جيبون تعليقا على مزاعم الرواية الفرنجية :- « ولكن تلك القصة الخرافية يمكن ردها بحذر القائد الفرنسى (كارل مارتل) اذ توجس من شراك المطاردة ومفاجآتها وردحلفاءه الألمان الى اوطانهم . ان سكون الفاتح ينم عن فقد الدماء والقوة وان اشنع تمزيق للعدو لا يقع حين التحام الصفوف وانما حين الانسحاب وتولية الادبار » .

(٣) راجع موسوعة Bagli التاريخية تحت كلمة Alderame ففيها أيضاً انكار للرواية الفرنجية عن خسائر العرب . وفى الترجمة الانجليزية للموسوعة تعليقات وملاحظات مفيدة لطائفة من المؤرخين الفرنسيين تجمع كلها على التنديد بمبالغة الرواية الفرنجية

ويعلق النقد الحديث على هذا اللقاء الحاسم بين الاسلام والنصرانية أهمية كبرى ، وينوه بخطورة آثاره وبعد مداها فى تغيير مصاير النصرانية وأمم الغرب ، ومن ثم فى تغيير تاريخ العالم كله . واليك طائفة مما يقوله أكابر مؤرخى الغرب ومفكريه فى هذا المقام :-

قال ادوار جيبون : « ان حوادث هذه الموقعة انقذت آباءنا البريطانيين وجيراننا الغاليين (الفرنسيين) من نير القرآن المدنى والدينى ، وحفظت جلال رومة ، وأخرت استعباد قسطنطينية ، وشدت بأذر النصرانية ، وأوقعت بأعدائها بذور التفرق والعطب » (١)

ويعتبر المؤرخ أرنولد الموقعة « احدى هاته المواقف الرهيبة لنجاة الانسانية وضمان سعادتها مدى قرون » (٢)



(١) Roman Empir Ch LII

(٢) History of the later Roman Common wealth



في الأدب العربي

من طرائف الشعر

آثار شوقية

— ١ —

كوميديتان لم تنشرا

بقى من المجموعة المسرحية لشاعر الخلود شوقى بك روايتان كوميديتان تهيئان الآن للطبع وهما: « الست هدى » و « البخيلة » . ومن قرأ الشعر الفكاهى للأمير يتصور الروح الخفيفة المرحة التى تشيع فى هاتين الروايتين . وفيما يلى منظر من رواية البخيلة يلهب النفوس شوقا اليها :

« الست نظيفة وخادمها حُسْنَى — حُسْنَى تدخل وبيدها شىء »

الست نظيفة : تعالَىْ يا ابنتى جيئى بماذا جئتنى حُسْنَى ؟
حسنى : لقد جئتُ بفنجانٍ خذيه جرّبى البُنّا
السيدة : وهذا شُبُكّى . هاتِ
حُسنى : أجل بالعود قد جيتُ
وفى الكيس مع الدخا ن زندانى وكبريتُ
السيدة : سَلِمت حُسْنَى يداك
حسنى : أنا مولاتى فِداكِ
والآن هل آخذُ خَرْج النهار ؟
السيدة : امضى خذيه إنه فى الكرار
حسنى : هيأْتِهِ سيدتى ؟
السيدة : أجل !
حسنى : وما أخرجتِ لى ؟
السيدة : رأسٌ من الثوم وخَمْسٌ من صغار البصل
حسنى : والسمن مولاتى ترى
السيدة : كأمسِ لم أُقلل
أوقيةٌ
حسنى : والأرز ؟
السيدة : لا . لا يدخلنّ منزلى
لقد غلا سعراً ولا يُعجبُنى السعرُ الغلى
حسنى : ليتكِ بالزَيتِ افكر تِ والدقيق والعسل
السيدة : ولِمَ يا حُسْنَى ؟ أرا كِ اليوم عادكِ الخَبَلْ
نسيتِ أن هنا وتحت هذى الكَنَبَهْ
العشراتُ من قديـ ـمِ الكعك والغريبّه
حسنى : لم أنس يا سيدتى
السيدة : أنتِ إذن مخرّبه
حسنى : قد اشتهيتُ لقمةَ القاضى
السيدة : اشتهتك عقربه !
السيدة : وما الذى اشتريت يا حُسْنَى لنا من الخُضَرْ ؟
حسنى : البامیا ! كأنها الزُ مردُ الخامُ الحَجَرْ
السيدة : البامیا منذُ متى هذا الخضارُ قد ظهر
حسنى : جديدةٌ قلتُ عسَى سيدتى بها تُسَرّ
نادى المنادون عليـ ـها منذُ أسبوع غَبَرْ
ترفُلُ من شوكتِها وفى شبابها النضر
السيدة : أجل لقد أكلتُها فى منزلِ الشيخ عُمَرْ
كالذهب الأبريز والثومُ عليها كالدُرَرْ
حسنى : واليوم تأكلينها
السيدة : أمرّ من طعم الصَّبِرْ
اشترَيتِ غاليةً مثل البواكير الأُخَرْ

حسنى : هدية تلك

السيده : وممن ؟

جسنى : من قريبٍ لى حضر

السيده : من أينَ جاء ومتى ؟

حسنى : من الصـــعيد قد بكر

السيده : وبِمْ ترى جزيته ؟ بقبلةٍ مستعجـله !

حسنى : سيدتى !

السيده : امضى اطبخى دقيّةً مكمّـلةَ
كأنها خليـــةً من عسلٍ مجمّـلهْ
والثوم فيها لؤلؤٌ وهى به مكلّـلهَ
والعظم

حسنى : واللحم

السيده : احذرى يُتعبُنى أن آكله

حسنى : اللحم ياسيدتى فى الباميا ما أسهله

السيده : حُسنى انظرى

حسنى : سيدتى

السيده : على البلاطِ وسخُ

حسنى : الآن أغسلُ البلا ط ثم أمضى أطبخُ

« وتخرج حُسنى الخادم »

— ٢ —

جبـــل الدروز

مشروع قصيدة لم تتم كان ينظمها المرحوم شوقى بك وهو بعالية من لبنان فى أسود الجبل وقد أخرجوا من ديارهم ففروا بحريتهم وكرامتهم الى الصحراء

....

ألا بديارهم جنّ الكرام — وشفّهم بليلاها الغرام
بلادا أسفر الميلاد عنها — وصرّحت الرضاعة والفطام
وخالط تربها وارفض فيه — رفات من حبيب أوعظام
بناء من أبوّتنا الأوالى — يتمم بالبنين ويستدام
توالى المحسنون فشيدوه — وايدى المحسنين هى الدعام
وأبلج فى عنان الجو فرد — كمنزلة السموءل لا يرام
يبيت النجم يقبس من ضياه — ويلمسها فيرتجل الجهام
له فى الاعصر الاولى سمى — اذا ذكر اسمه ابتسم الذمام
كلا الجبلين حر عبقرى — لدى محرابه ملك همام
أُزيلوا عن معاقلهم فامسى — لهم فى معقل الصخر اعتصام
. . . . — . . . .

الذكرى

مرت بىَ الذكرى فعا — ود قلبى المضـــنى أساه
ولمحت عهدا خاليا — ووجدت فى الذكرى شذاه
أيام روضُ اللهو غض — والهوى دان جناه
والعيش مُخْضر الحوا — شى والمنى تُندى ذَراه
والقلب يمرح هائماً — نشوان ما يدرى هداه
كم لذّ تقبيل الخدو — د وشاقه لثم الشفاه
واليومَ صوّحه القنو — ط فشاخ منضورا صباه
فى هدأة الذكرى وأحـ — لام الشباب بكى هواه
وطوى بساط اللهو فى — شرخ الصبى والهفتاه !!!
أوّاه من عبث الزما — ن وآه من كيد الحياه !

دمشق — حلمى اللحام

قلب !

لشاعر الشباب السورى أنور العطار

ياقلب ! ياهيكل قدس الهوى — ويامطاف الذكريات العِذاب
أضمُم على الحب شراع المنى — فهو طعام الروح وهو الشراب
تالله لولا حرمـةٌ للهوى — لكنت أصليتك مُرّ العذاب
أمضّنى حملك طفلاً وهـا — لما تزل طفـلاً كثير الشغاب
تملك أطراف السماء التى — لم يمتلكها الدهر، طيف التّباب
تفتنٌ فى الضحك وما تأتلى — تلعب حتى يتعايا اللعّاب
صبّرت عنك الروح لكنما — أضجرها منك مرادٌ عُجاب
أضعت من أجلك زهو الصبا — فضاع ريحانى، وضاع الشباب

لم يبق لى من مأمل يرتجى — فى راحة الأحلام غير السراب
يرفُّ، والروح شديد الصدى — يعلِه فى العمر ماء كِذاب

* * *

قيثارتى تمعن فى نوحها — ونوحها شطر فؤادى المذاب
أشعارها فى ذى الدُّنى نفحة — تائهة فى عالم من ضباب
تضيع فى غيهب هذا الورى — ضيعة طفل فى فسيح الرحاب

* * *

ياغيب! هذا الطفل جمُّ الرؤى — مفضض الأفياء، نضر الشعاب
مختطفٌ، شاردة روحه — وشارد الروح طويل الغياب
غلغل فى دنيا الهوى فارتمى — حيران قد ضل سبيل المآب
خذه إلى ساحك تغنم به — أغرودة حالية بالرغاب

أيها النيل

أيها النيل أنت روح البلاد — ورسول المنى وكل المراد
لست ماء فى أرضنا بل دماء — تتمشى بين الحشا والفؤاد
فاجر يانيل بالحياة إلينا — وابعث الخير فى بطون الوادى
وأملأ القطر من ترابك تبراً — وأبق يانيل رغم أنف العوادى

* * *

أيها النيل لن تذل مدى الدهـ — ـر وفينا ذخيرة للجهاد!
مصر تفديك بالدماء وبالنفـ — ـس إذا عز فى الخطوب الفادى
فهى لولاك لم تكن منشأ النو — ر ومهد الحجى وكهف الرشاد
وهى لولاك لم تكن ذات مجد — ثابت الأس مستقر العماد
وهى لولاك لم تخلَّد بذكر — فى جميع العصور والآباد
وهى لولاك لم تكن منية الغر — ب حديثاً وكعبة القصاد

* * *

أيها النيل بلغ الغرب أنَّا — قد صحونا من الكرى والرقاد
وسعينا إلى النهوض لنحيي — لك عهد الأبوة الأمجاد

محمد فريد عين شوكه

الوداع الأخير

أغداً ياهاجرى موعدنا؟ — ردَّت الموعدَ أيامى عليكْ!
ها أنا الساعةَ فى مُنعزَلى — أسلم الروحَ وأزْجيها إليكْ
كم تمنَّيتُ إذا أسلمتُها — لو أتتْ خاتمتى بين يديكْ
ياضنيناً باللقا .... حتى اللقا
ساعةَ الموت من الحرمان؟ ويكْ!
أيها القاتل .... إنى مشفقٌ
لك – إن تلق الردى – من ملكيكْ!
بىَ أوجاع قد استعصت على
حكمة الآسى.. وما استعصت عليكْ
فى سرير الموت جسم دارسٌ — ذو فؤاد ذائب من ناظريكْ
أيها القلب .... سألقى خالقى — ما جوابى إن يسَل عن قاتليك؟

* * *

لست بالخائف فى أخراى من — لهبٍ ألفيتُه برْداً لديك
كنت فى الدنيا مجوسياً صبًا — للهيبٍ موقد فى وجنتيك
لكأنى كنت مثلوجاً.... وكم — أدفأتنى قبلةٌ من شفتيك!
ياشقيق الزهر والطير أمَا — سألتْ نفسُك عنى أخويك؟
أنا فى روضك أرويه بما
فاضَ من دمعى مدى العمر عليك
فى سرير الموت أغفى شاعرٌ — عبقرى ... وحيُه من مقلتيك
ياضنيناً باللقا ... حتى اللقا
ساعة الموت من الحرمان؟ ويك!

صالح جودت

فى الأدب الشرقى

من أحدث الشعر التركى

قصيدة لمحمد عاكف بك

للدكتور عبد الوهاب عزام

كنت عزمت على أن أنتقل من الشعر التركى الحديث الى موضوع آخر من الشعر الشرقى ، ولكننى حينما عدت الى حلوان فى آخر الشهر الماضى وجدت الصديق الفاضل محمد عاكف بك قد فرغ من نظم قصيدة طويلة من روائع شعره يتجلى فيها بعض ما يحسُّه عظماء الشرق ، من الآلام والأحزان فى أيّامنا الحاضرة ، فاستحسنت أن أجعلها ختاماً للكلام عن الشعر التركى وكان من توفيق الله أن ظفرنا بمثل هذه الخاتمة .

الفنّان

قصة — سمعتها منذ ثلاث سنين فلعل لها سامعاً واعياً .

.... فصَل القطار من بوستون بعد الزوال بخمس دقائق . وتفرق المودعون ، وآوى الى المقاصير المسافرون .

فها أنا مستبدٌّ بهذه المقصورة الثمانية (١) وقد أمكنت الراحة فما يمنعنى أن أستلقى فأريح فكرى وجسدى . لتدرّ السماء والأفق والأرض وجداً فلست أبالى ما استقرت بى هذه الزاوية

لله أى أشجار من الزمرد ! .. وأى لجج من المروج ! .. أزهور هذه أم قصور ؟ .. ما هذه القرى فى حلل المدن وأبهتها ؟ ... ما أجمل الطريق وما أبهر مناظرها ! ... وما أكثر هذه المصانع ! ....

أخذتنى سنة فانمحت هذه الخاطرات كلها . وبينما أطفو وأرسب فى آفاق النوم اذا أنا مشارَك فى مقصورتى : واذا كوكب فى مبعة الصبا قد طلع أمامى . كلما طمح البصر اليها أزاغه لألاؤها فخر ساجدا على قدميها . والى جانبها — ولا ريب أنه حبيبها — رجل نجيب ، محبب الى الرائى ، طويل القامة ، رزين ، مهيب ، تشهد كل أسارير وجهه أنه فنان .

أشفقت أن أروع هذين القمريين ، فعلّقت أنفاسى ولبثت قابعاً فى زاويتى . ثم شرعت أرقبها اذ لم أر حاجة الى هذا الاشفاق : أما الفتاة فكانت عيناها الذاهلتان مستغرقتين فى حبيبها حتى لتحسب ان لو أنقضّت أجرام السماء لم تفق ولم تشعر . وأما العاشق - وقد غشى الحزن أسارير جبهته الوقور - فقد غابت نظراته العميقة فى أجواز الفضاء البعيدة . كيف يحسّ ظلّ وجودك وهو يرمى الغيوب بعينيه وبجانبه ليلاه ، وأمامه صورة المستقبل الذى طمحت اليه عيناه ؟ فانس نفسك ثم انظر ماذا تقول الفتاة :

أيها الأمير ! أرأيت ثلاث القطع الأخيرة ؟ إنها لساحرة جدّ ساحرة . ما أصاخ المسرح فى حياته الى مثل هذه البدائع ، أرأيت شمس الصيف حين تطعن باشعتها فى السحب فتحرق السموات نيران البروق الخاطفة ؟ كذلك كانت أصابعك التى لم تضرب ، بل احرقت العود النائح تحت خطوات الضياء ! لو علمت كيف أنّت تلك الصدور التى كانت أمامك ! ربّ ! ماذا كانت هذه النوّحات الداخنة لحناً بعد لحن كما تدمى وتحترق مئات من قلوب البلابل وأنت تصب شآبيب اللهب على الاوتار كلها جملة واحدة ! إن هذا النفَس المنبعث الينا من قلب الصحراء المحترق — هذا الخطاب الذى يحشر الاجيال كأنه نفخة الصور هو أوّل ما سمعه غربنا المدنىّ . علم الله لقد كنت ، وصواعق المضراب تتساقط ، أتمثل سراب الماضى ، ماضى مصر والعراق ، وايران والحجاز ، واليمن وغزنة وبخارى ، والسند والهند — كنت أتمثل هذا السراب صاعداً من كل خربَة دخاناً بعد دخان !

— ولكن كيف يحتمل عجزى هذه الكلمات ؟ إنّى لأخجل أن أشكرك .

(١) يعني أنها تسع ثمانية أشخاص

— ماذا تقول ؟ ان للتواضع حداً فاعرف قدرك .

— أنا لا أعرف الاّ قدري :

كلاّ كلاّ ! حتّام تخفى نبوغك ؟ ألم ترالى الذين استمعوا لعزفك اليوم؟ـ وهم شياطين الصناعة فى هذا العصر بلاريب ـ ألم ترهم جميعاً قدأحنوا رءوسهم اكباراً واعجابا . ولاسيما مشاركة غودسكى (١) فى عصفات التصفيق الثائرة بين الحين والحين، وتهنئتُه اياكَ وقوله: « أيها الأمير ! لا أدرى أين نظير هذا الاعجاز ، ما أبهر عزفك ! انى بك جد مفتون ، وأنك اليوم فوق كل ثناء» أنها كلمات أخذت أنفاس الحاضرين

— لأنه يحب الفقير (٢)

— كلا . ان هذه الديار ، مالم تغير شعارها ، لا تحب الفقير أبداً ، وانما تحب الدولار . ولست أعرف ديارك . ولعلها على غير هذا .

— ان يكن بيننا فرق فمقدار رأس فرس فى حلبة الرهان .

— نحن إذن شركاء فى الفاقة . وانها لبليّة .

— ولكن ما كان ينبغى أن يغض من قدر غودسكى ، فان كل قريب يعرف شرف نفسه ؛ دع عبقريته التى سيطرت على كل بعيد . فان لم يكن فى صدره قلب حساس فانشرى على الخليقة كلها كفناً من المعِدات .

— حسن ! والآخرون ؟ أهم كذلك أصدقاؤك ؟

— لا !

— هل نسيت ما قالوا : «أيها الأمير ! ما سمعنا قط فيولنسل(٣) كهذه، قد تسخرّ العبقريات الكبيرة ، هذه الآلة الثائرة المستعصية التى تزلزل العبقريات الصغيرة ، ولكن المعجزة فى عُودك هذا . نعم ان فيولنسل عندنا آلة أبيّة مرهفة ولكنها كملت على مر الزمان . وماهكذا عودك ، انه آلة ساذجة تأبى كل كمال . ان هذه الأصوات الزاخرة كالشلال لا تفيض من مثل هذا الصدر . كنا نظن هذا فاذا بك قد أخرست الفضاء وظهر بين الحين والحين عودك اللانهائى . . . »أهذه مجاملة ؟

— أليست مجاملة ؟

— رحماك ! انى لأخشى أن يكون تواضعك أشبه بالرياء ! لقد آن أن نعترف بنبوغك .

(١) غودسكى أكبر ضارب على البيان فى العالم (٢) يريد نفسه
(٣) آلة موسيقية اكبر من الكمنجة اربع مرات

— ان مقاربة الكمال بعيدة عن آمالى فدعى النبوغ الآن !

— ماهذه النغمة الباردة المعادة ؟ وهذا القرار المكرر ؟

— ذلك أن الفنان لا يعلو بذراعيه ، ولابد للنبوغ من جناح ، ولا جناح لى .

— أأنت لا جناح لك ! اجهر بصوتك فما فهمت ! انك منذ قليل جاوزت شواهق الصناعة ثم حلقت حتى تخطيت حدود الامكان . أنّى اهتديت الى هذه السبل المختلفة للايغال فى هذا الطيران ؟ لا ريب انك لم تطوّف فى عالم اللانهاية راجلاً . وان لك فى هاتين الآلتين الخافقتين فى ذكراى جناحين آخرين . فليت شعرى أفى العالم عبقرية كهذه تسمو بها أربعة اجنحة باحثاً خيالها فى سماء الالهام ؟ ان الدم الذى فى عروقك لمن دم الأنبياء ، وان غلياناً فى هذا الدم لجدير ان يبعث فى الشرق ازكى حماس : ان وراءك جدوداً قد تصرف بالدهر سلطانهم، وان امامك ذكراً قد ضمن لك المستقبل منذ اليوم ، فهل جاء أحد الى هذه الديار فى هذه السعادة ؟

— أهكذا السعادة ؟ كلا ! لا تخدعى نفسك بالسراب . اجل نشأت فى طفولة سعيدة اتبحبح فى دار كأنها الفردوس . ولكن اكفهر الجو منذ تخطيت عتبة الدار : احاط اللهيب والدخان بالشرق الممزق ، وكيف ينهض من تلقفت داره النار فانقضت فى التراب كل مفاخره حتى لم تبق خربة من هذا الماضى المجيد ؟ وبينما تململ تحت هذه المصائب تقطعت الديار فذهبت واحدة بعد اخرى، فلما نظرت ورائى لم أر داراً ولا ديّاراً : ذهبت بها جميعاً ايدى الاجانب ! فلم يبق فى هذه القبة الا يأس امة خاسرة !

— أليس هو اليأس الذى كان يئن به عودك ؟

كلا! لو أنّت الكائنات كلها بَلْهَ العود ماترجم النواح عن ألم متقد فى الجوانح . يقول شاعر الهند الفيلسوف محمد إقبال : « احترقت من نغانى المضطربة قلوب الأصدقاء ، وإنما يحترق قلبى من النغمة التى يعجز عنها الغناء . » وكذلك أنا . فما سمع بعد من لسان مضرابى صوت الألم الذى يدوى فى قلبى الخرب ! ذلك سَموم ، فكيف تبين عنه بضع آهات ؟ نعم لم تبن عنه فما كنتِ الآن عارفة أمرى إذ تغنيت بأغانى سعادتى! فلا تغضى إن عجبت لظنك بى . لا تغضى واعلمى أنى نِضوُ مصائب ، أجالد هذه الأحداث التي تسمي القضاء . وقد عيَّ رأسي وذراعي

بالجلاد المحتدم ليل نهار، لا أزال أتحامل وأنهض. ولكن الشباب قد انهدم ! واحسرتاه ! على أى حين قد انهدم : حين يئست من الظفر ونأى عنى أمل النجاة وذهب الهلاك بكل خطوة خطوتها الى المستقبل. والا فأية بلية لم تنل منى ؟ أصورة وطنى الذى انقلب كثباناً من الرماد ؟ أم تعاسة أمتى الهائمة بغير وطن ؟ أم عشى اليتيم الذى عصفت به ريح الخريف ؟ أم أسرتى المرزأة التى ذرتها الرياح فى الأرجاء ؟ أم معابدى ومقابرى التى طمسها البلى ؟ أم حرم كعبتى الذى أقفر إقفار البيداء ؟ أم دينى الذى دمى قلبه دهراً حتى وقع ؟ أم نعيب البوم على هذه الخرائب خرائب الاحساس ؟

وبعد فأية فاجعة لم أصلَ بنارها ؟ لست أعلم ما طواه لى الغد فهو الآن سر محجب، ولكن إن تسأليني عن مصائب اليوم فاليك إجمالها :

ارتمت بى فى اليم سفينة بالية. فاكبر ظنى ان لن أعاود الحياة، وكنت أعزى نفسى حين أرى أساطين عشيرتى بجانبى تتقلب بنا الخطوب معاً. فثارت العاصفة ومزقت أضلاع السفينة وتفرقت الأمواج بالألواح. فلتصارع القضاء هذه السفينة التى انقلبت خيالاً، بل لم يبق منها الخيال ! لماذا أكافح أنا فى هذا البحر ؟ قد اعتصمت بلوحين تعسين، وما بقاؤهما فى مصارعة جبال من الموج ؟ والسماء تحجبها ظلمات من السحب متراكمة : ويجثم على الفضاء اشد الليالى حلكا وهولاً، فاكوام الظلام عن يمينى وشمالى وأمامى وخلفى. لا أعرف المكان ولا الغاية ولا الجهة ولا الوجهة. أضطرب يائساً وأدور التمس الفروج فلا أظفر بها، فأرانى مسكيناً يُدفع الى القبر حياً ! حيناً تقذفنى الأمواج الثائرة ! وحيناً تهبط بى هوة جهنمية يرعدها الفضاء ! وحيناً تنشق السحب عن البرق الخاطف يمزق احشاء الظلام، فاذا مرأى هائل لا يذر للحياة الرجاء ! أقول مرة : « ان القضاء لا يُصارع. فان لم يكن من الاجل بُدٌ فما تمسكى بهذين اللوحين ؟ حسبى جلاداً وكفاحاً ! » وأقول أخرى : «كلا ! لا أستسلم ! لأصدم برأسى الصخرة ولأصدم به الانتحار ! » ثم أمضى طافياً راسباً.

— ألم أقل الآن أيها الأمير ! ان الذى يتحكم فى نفسك دم الأنبياء ؟

أجل، أطفو وأرسب وإخالنى لا أتقدم — بهذين اللوحين اللذين سميتهما جناحين ! بهذين اللوحين وهما البقية من انقاض شبابى المهدّم ان تكن له بقية !

— أما كنا نريد ان نشهد الغروب منذ حين ؟ وا أسفا قد ذهبت حتى حمرة الشفق ! وجثم على الآفاق اليتيمة حزن المساء فانقلبت صدراً حزيناً. ألا تراها ؟

— هذه « الآفاق اليتيمة » تمسح عليها الآن يد الشفق ؛ فاذا انطفأ الشفق مسحت عليها ايدى النجوم. واما « الصدر الحزين » فأن غده مشمس. ولكن آفاق ليلى ليس لها من هذه القبة ضوء ولا صدى، وانما حظها هذا الظلام الصامت، هذا الظلام السرمدى ! كلما هبطت الى ساحة قلبى اخذتنى الرعدة والوجل : اذ أرى فى كل خطوة اثر غروب. نعم اثر غروب، ولكنه عميق كالعدم ! فانما موعد شموسى الغاربة يوم المحشر !

ولكن ما هذا الحزن وما هذه الدمعة على وجهك ؟ لا تختمى بتعذيب مسافرك أيتها الرفيقة الجميلة ! يعلم الله لو أن قلباً قدَّ من صخر ما إحتمل انهمار هذه الشآبيب الغائمة فى عينيك ! لا ! لا ! إنه ليحرقنى أن تحسى آلامى. فدعينى أبكى وتنحى عنى ! قد قاسيت مصائب الدنيا جميعاً، ولكن دعينى أمضى دون أن أرى هذه الدموع !



عيد الكهارب

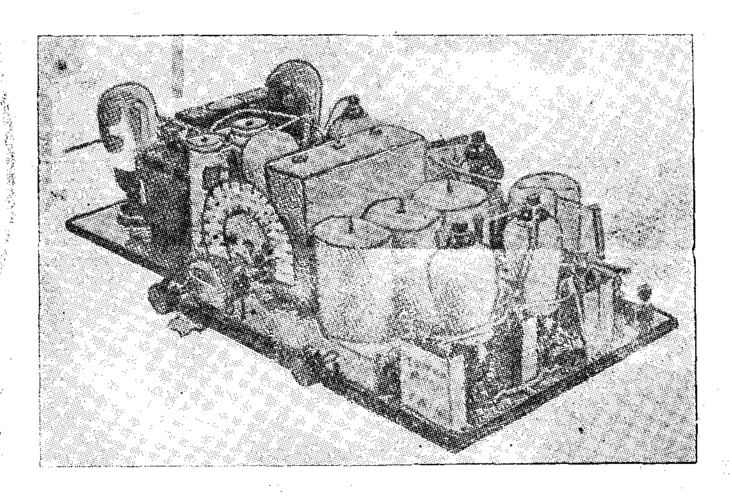
للدكتور احمد زكى

امتلأت الطرقات وسُدَّت المسالك بالمشاة والراكبين وتكدست العربات الخاصة والعامة من فوق الأرض وتحتها بحمولاتها الأنسانية وكلها وجهتها اوليمبيا ، ذلك القصر الواسع فى الحى الغربى من لندن حيث يقام كل عام مهرجان كبير ، يعرض فيه كل جديد فى عالم اللاسلك . وما انتصف النهار حتى أخذ البهو الكبير من القصر السقيف يضيق بمن فيه ، وأخذت الخطوات تقصر فى سبيلها بين المعروضات حتى كادت تنعدم الحركة ، ولما بلغ الداخلون خمسين ألفا صدر الأمر الى الأبواب أن تمنع الدخول ، وكان على الأبواب الألوف من الناس فى صفوف كالجند منتظمة ، كل ينتظر دوره واقفا ، لايزحم رجل امرأة ولا يافع شيخا ، ونمت الصفوف ذيولا ، وتفرعت الذيول وطال الانتظار ، ونفد الصبر ، وكان اليوم مشمسا حاراً ، فأخذت تشيع فى الجمهور الصامت بطبيعته أصوات القلق ، وأخذ يتبدل النظام السائد بالهرج ، وتبـــدل الهرج بزئاط صارخ واحتجاج منذر ، دوت على اثره فى داخل القصر الشاسع ثلاثمائة من نواعق اللاسلك ترجو ممن أتم طوافه بالمعروضات أن يغادر بسلام ، وخرج من المعرض ممثلون وممثلات من المشهورين فى عالم الراديو والمشهورات يعرضن على أرصفة الطريق من ألعابهن وأغانيهن مايسلى الجمهور ويطيب خاطره ، ولكن القدر كان قدغلى وأوشك أن يفور . وبدرت بوادر العنف . فلما تحطمت الواح الزجاج من بعض المداخل تـلفِن البوليس فجاء لساعته بركبه ورجله وملك ناصية الموقف فى دقائق ، وأحتَبس رجل واحد . وعُدَّ من بخارج البناء عـدا تقريبيا فـكانوا خمسا وعشرين ألفا

دخلنا البناء حيث المعرض فوجدناه يتألف من الصالة الكبرى قد بَعُدَ طولها ، وامتد عرضها ، وسما ارتفاعها ، وعلى أرضها موائد متطاولة عليها أجهزة اللاسلكى الكاملة قد صفت فى خطوط متوازية تستطيل تارة وتستعرض أخرى ، وبينها الناس يسيرون كالنمل فى بطء وكثرة . وفى الوجه المقابل للداخل سلم عريض قد تغطى بالزائرين وهم فى طريقهم الى الدهاليز العليا، والشرفات الجانبية حيث أكثر المعروضات للقطع المفردة التى تتألف منها الأجهزة الكامله . وقد راعى المنسِّقون والعارضون جميعا فى تفريق الأماكن وتخصيص المناضد، وكذلك فى المعروضات وأنواعها وأحجامها وألوانها وزينتها، أن تتألف من الجميع وحدة كاملة جميلة تسترعى عين الزائر وهو لا يزال على الاعتاب ، وكأنهم خشوا أن يكون جمال التنسيق ضعيفا فاترا فرسموا بأنابيب الكهرباءة الحمراء فى قبالة الداخل على الجدار العريض العالى الذى يهمين على الدار رسما كبيرا عظيما رائعا يجمع الى الجمال القوة والفتوّة . وبلغ عدد العارضين نحوا من ثلاثمائة ، وبلغت المبيعات نحوا من ثلاثة ملايين من الجنيهات ستجعل المصانع فى شغل شاغل مدى أشهر الشتاء القادم

وامتنع العارضون عن ادارة الاجهزة والتقاط أمواج الأثير خشية أن يتصدع الجمهور بمئات الأبواق فلم يكن لغير الفنىّ فى المعروض مأرب ، إلا أن يستمتع ببريق الصمّامات وجِدَّة المكثفات وسواد الحُوَيّات ودقة النجارة فى صناعة الأبواق والخزّانات . أما الفنىّ فلم يكن هناك حد لنهمه فقد امتاز هذا العام بتقدم فى كل قطعة من مستقبلات الراديو أفسد على الكثيرين اغتباطهم بالأجهزة القديمة التى لديهم ، وحرّكهم وسيحركهم لاشك، إما الى استبدال قديم بجديد، واما الى الاقتصار على الترقيع لتنال اجهزتهم حظا من الجدة . ولكن فى كثير من الأحوال يتناول التجديد أساس الجهاز من حيث النظام

الذى بُنِيَ عليه ونوع الاجزاء التى تستخدم فيه. فى هذه الحالة قد يتكلف الترقيع أكثر من شراء الجديد. ولعل هذا هو السبب فى أن كثيرا من مخازن لندن كانت تعرض قبيل ابتداء المعرض اجهزة كثيرة هى لاشك من الطرازات القديمة بأثمان بخسة بلغت النصف فما دونه. وهذه حال لاتسر مقتنى الراديو. ومن المؤسف أنها ستتجدد كل عام ما فتىء العلماء يبحثون وما ظلت الشركات وهى عديدة وغنية تتنافس فى تجويد المحصول. الا أن صنفا من المستهلكين لا يفتأ يجد لذته فى هذا التغيير والتبديل بحلول كل عام جديد. ذلك فريق الهواة الذين يركبّون اجهزتهم بأنفسهم، ويفقهون كيف تعمل فهؤلاء يرحبون بكل جديد للمتعة التى يجدون فى الحل والربط وفى ترقب التحسن الناشىء فى استقبال للأثير أدق. والتقاط للكلام والنغم أصفى وأروق. ومن الغريب أن كثيرا من الهواة هَوَاهُم يقف عند هذا الحد. أو إن هو تعداه أصبح رغبة عادية لا يتحرق لها إرَم ولا يغلى معها دم. هواهم فى الآلة المعدنية الزجاجية الخشبية التى تلعب فيها أصابعهم وفى النتاج التى تأتى به من حيث الأداء. أما ما يحمله الأثير من جملة بديعة أو نغمة مشجية فله عندهم المحل الثانى. ولكم سر الزائرَ الغريب للمعرض أن يرى شبانا هواة لم يعدوا بعد العشرين ينسلون كالسحالى من خلال هذا الزحام يجمعون فى أكياس من الورق بأيديهم نشرات العارضين وكتيباتهم وقد حوت كل طريف حادث.



جهاز استقبال حديث

وتتناول التحسينات المعروضة الاستقبال وحده، أى تحسين الآلة من حيث حسن أدائها، وحمايتها من البيئة التى تعمل فيها. مثال ذلك أن حسّ الآلة زاد، أى أنها تستطيع أن تلتقط أضعف الموجات فى الأثير وأن تكبرها دون أن تفقد منها شيئاً لا من النغم العالى ولا النغم الواطىء، أو دون أن يضعف هذا أو ذاك. فان قيمة ذلك كبيرة فى إذاعة الموسيقى، ولو أنه ليس له مثل هذا الخطر فى إذاعة الكلام. كذلك زادت فى الآلة القدرة على الاختيار، فكثيراً ما أراد الانسان مناغمة tuning محطة فهوّشت عليه محطة أخرى موجتها قريبة من تلك، فاصبح الآن يستطيع أن يحجب المحطة التى يريد حجبها. كذلك كان السامع يستمع الى المحطة التى يشاء فى اغتباط وهدوء فلا يلبث أن يرى الأصوات تضعف حتى تكاد تنعدم ثم تهجم على اذنه فى قوة ثم تتقهقر فلا تترك فى نفسه لذة من سماع، فاصبح بالآلات الجديدة فى مأمن من هذا يستمع لنغم ذى قوة مضطردة واحدة. كذلك كانت الآلات تتأثر بما فى البيت أو الطريق من الكهرباء، كأن يكون بالمسكن مصعد أو بالشارع ترام، أما الآن فقد حاطوا الآلة — أو الأصوب بعض أجزاءها — بما يصد عنها كل هذا الأذى. حدثنى صديق أنه الآن لا يجد للمصعد هذا الأذى مع أن جهازه لا يفصله عنه غير سمك حائط. كذلك كنت تتطلب استماع محطة فتدير اللولب فيمر بك على محطات أخرى منها القريب القوى الذى يصرخ فى البوق ذلك الصراخ المؤلم المعروف، أما الآن فتضبط الآلة كل هذا من نفسها. بل من الآلات ما لا تسمع له صوتاً وأنت تدور باللولب تطلب المحطة التى تريد. وأنما ترى مصباحاً ينير ويظلم كلما مر بمحطة، فاذا أضاء عند موجة المحطة التى تريدها خفضتَ زرا فجاءك النغم والصوت على أشده، هذا الى كثير من التغييرات التى لا يمكن ذكرها دون الدخول فى معقدات الفن، ودون ذلك حوائل منها اللغة العربية، ولقد جازفت فى هذا المقال فقلت « المكثف » و « والحوِيَّة » و « المناغمة » و « المستقبل » وفى نفسى شك كبير فيم يفقه القارىء من ذلك

أما من حيث أحجام الأجهزة وشكلها فلم تبق الشركات رغبة لراغب الاقضتها، فالجهاز الكبير الذى يملأ الحائط كأنه قطعة من الأثاث موجود، والجهاز الصغير الذى تربطه الى قائم عجلة الادارة من سيارتك موجود، والجهاز الذى تستقى له من كهرباءة المنزل موجود، والذى تستقى له من كهرباءة البطاريات موجود، ومهما شئت من أشكال أو ألوان



لخزانة الجهاز تتوافق مع شكل الحجرة التى تضعه فيها ولونها فموجود كذلك، ماوُجدت فى كيسك الجنيهات . أما الذى خيَّبت آمالنا فيه بحق فالاجهزة التى تنقل لك صور الرجل المذيع وهو يتكلم أو يمثل أو يغنى Televisor : فقد أقامت شركة ماركونى جهازا كبيرا من تلك الأجهزة عرفناه من بعيد لأنه كان حجر عثرة فى سبيل سيل الزحام المتدفق لأنه كان ينجمد هناك . وصبرنا حتى بلغناه واذا بوسطه لوحة سوداء طولها قدمان فى مثلها عرضا هى التى تركّزت اليها الأنظار .

اخذنا ننظر مع الناس فلم نر شيئا، وكنا على ساحل الصخرة الآدمية فى قبالة اللوحة، وبعد لأى ضُغطنا من حيث لاندرى الى مكان أحب وأقرب، فعندئذ تبينا أشباح الممثلين وتتبعنا حركاتهم وهى متصلة حقا كاتصالها على شاشة السينما، الا أننا خلناهم من ظلمة المنظر يلعبون فى ليلة مقمرة قد حجب بدرها سحاب قاتم. على أنها بادرة حسنة وأول الغيث قطر ثم ينهمر ؟

لندن فى ٣٠ أغسطس ١٩٣٣ — أحمد زكى

ابن فرعون يتعلم ..

للأديب حسين شوقى

كان الأمير الصغير (مرى آمون) ولى عهد فرعون - ولم تكن سنه تربو على العاشرة - يتلقى دروسه الدينية فى حجرته .. وكان معلمه الكاهن الكبير (موتيب) يشرح له الاسرار السماوية العميقة فى اوراق البردى المنثورة أمامه .. وكانت لحية الكاهن الطويلة تروح وتغدو فى الفضاء كلما تكلم، كأنها الآلة الكهربائية التى تمسح زجاج السيارة أمام السائق فى أيام المطر حتى لا يحجب عن نظره الطريق .

كان الكاهن يقص على الأمير كيف تكوّن العالم وكيف خلق الاله رع هذا الفضاء، ثم الارض، ثم السماء، ثم النيل، ثم التربة الخصبة، ولكن مرى آمون كان يستمع الى معلمه فى سآمة وضجر، ويود لو شارك الاطفال الذين شاهدهم من النافذة يمرحون فى الحقول طلقاء سعداء فى مرحهم ولهوهم، بينما هو يقضى العمر سجينا بين جدران أربعة ! فاذا ذكر الكاهن جهنم وأخذ يصف الشياطين المكلفين فيها بعذاب من أذنب فى الحياة الدنيا، أحس مرى آمون برعدة تسرى فى جسمه الضئيل .. وكان الكاهن يرمقه بابتسامة صفراء كأنه مغتبط لخوف الامير .. كم ود مرى آمون فى تلك اللحظة لو دق عنق معلمه ! .

وفى أثناء ذلك، ازداد ضجيج الاطفال فى الخارج، فنظر الامير اليهم مرة أخرى من النافذة، فاذا بهم يطاردون جحشاً فر من صاحبه .. عندئذ استولت الحماسة على قلب الامير، واشتدت به الرغبة فى الانضمام الى أولئك الصبيان، فصاح بمعلمه قائلا : سيدى أرجو منك أن تدعنى أذهب لمساعدة هؤلاء الاطفال فى القبض على الجحش الهارب .. فكان جواب الكاهن أن غلق النافذة واستمر فى القراءة كأن لم يقع شىء ..

تقلب الامير المسكين فى سريره تلك الليلة، ولم تذق عينه النوم لأنه كان جد غضبان .. ولو نظر مرى آمون وجهه فى المرآة فى ذلك الحين لشاهد تلك الحمرة الجميلة التى علت خدوده ذات الصفرة الذهبية من جراء انفعاله ! .. حقا ! لقد مل الامير الحياة، وسئم استبداد معلمه ! صحيح ان بالقصر أطفالا كثيرين من أبناء الاشراف يستطيع الامير مشاركتهم فى العابهم، ولكن هؤلاء لا يعاملونه معاملة الند للند بل يهابونه ولا يخاطبونه الا فى كلفة وحياء ! .

رب كيف يتخلص الامير من نير الكاهن حوتيب ؟ انه طالما شكاه الى فرعون والملكة فى الأوقات القصيرة التى يسمح له فيها بمقابلتهما ولكن من غير جدوى .. فقد كانا يردانه دائما خائبا كأنه ارتكب جرما .. لم لا يرفع الامر الى الآلهة الفخام وهم من أقاربه كما يزعمون؟ ولكن هؤلاء هل يعينونه ؟ انه يشك فى ذلك، أنظر الى صورهم المخيفة ! . ذاك (سوبك) اله الماء، له صورة التمساح الذى يخطف الاطفال على ضفاف النهر، وذلك (أنوبيس) فى شكل الذئب وقد أكل فى العام الماضى غزال الامير المحبوب .. وتلك (هاتور) على هيئة بقرة، فهى لاشك بلهاء لاتستطيع نصرته .. اذن من يخف منهم لنجدته ؟ ايزيس ؟ أجل! هى الام البرة . كم مرة سكب الامير دموع الرحمة والحنان ازاء تمثالها وهى جالسة تضم الى صدرها ولدها المحبوب هوروس ! وفى تلك الليلة نفسها دعاها الامير لنصرته

فاستجيب دعاؤه! ربما تكون ايزيس بعيدة النظر فى استجابتها دعاء الامير؛ اليس مرى آمون ولى عهد المملكة؟ لو آل اليه الملك بعد موت أبيه اذن سوف يتذكرها فيفضلها على سائر الآلهة ويبنى لها شاهق القصور ويقيم لها أعظم التماثيل، ويغدق عليها الهدايا والقرابين. واليك كيف استجابت دعاء الأمير:

لاحظ الأمير أن من عادة الكاهن ملازمة حجرته فى كل احتفال دينى يقام بالقصر، فكثيرا ما بحث عنه الأمير بنظره فى مكان الاحتفال فلم يجده فيه، بينما يحضر هذه الاحتفالات الملك والملكة والكهنة الآخرون، وجميع رجال القصر.. فكان مرى آمون يتعجب من أمر معلمه ولا يفهم سبب احتجاب الرجل وتخلفه عن حضور مثل هذه الاحتفالات العظيمة.. وفى يوم عيد دفع الأمير حب الاستطلاع الى ان يختبىء فى حجرة الكاهن حتى يدرك السر، ففعل ذلك قبل وصول الكاهن الى حجرته بقليل، وما كاد حوتيب يدخل ويغلق خلفه الباب حتى ضغط على زر فى الحائط فانفتح فيه ثقب دخله الكاهن على الفور.. وقد أراد الامير أن يتبع حوتيب فى الثقب ولكنه أحس الخوف يتملكه، فعاد مهرولا الى حجرته الخاصة.. وفى المرة الثانية تغلبت الرغبة على الخوف فاستطاع الأمير اتباع الكاهن داخل الثقب فاذا به فى دهليز مظلم انتهى منه الى مكان ضيق يقع خلف الحائط المستند اليه تمثال آمون الكبير القائم فى قاعة الاحتفالات، واذا بالكاهن يقف خلف التمثال المذكور ويتناول من الأرض بوقا ثم يتكلم منه بصوت متغير مقلدا صوت التمثال، فيردد الألفاظ التى طالما سمعها الأمير فى تلك الاحتفالات بنصها، وكان يظن هو وسائر الحاضرين بطبيعة الحال، انها صادرة عن الاله.. حقاً! ان دهشة الأمير كانت عظيمة بمقدار خوفه، لذلك هرول مسرعا الى الخارج.. ولكن قلبه كان يفيض سرورا لاكتشافه العظيم الذى سوف يشتريه منه الكاهن بثمن عال.. وفى اليوم التالى انتهز الأمير فرصة غياب الكاهن عن القصر فقصد حجرته، وهناك ضغط الزر ثم دخل فى الثقب وعاد منه بالبوق.. بعد ذلك، عندما أزفت ساعة الدرس وأقبل المعلم يتهادى فى رزانته المعتادة، دنا الأمير منه قائلا:

سيدى أظن أنك فقدت هذا البوق فى الثقب! عندئذ احمر وجه الكاهن حتى عاد «كالطماطم» ثم مد يده ليأخذ البوق صائحا فى غضب: أعطنى هذا البوق!

ولكن الأمير وضع يده بالبوق خلف ظهره وقال فى ابتسامة الظافر: سوف أفعل ياسيدى اذا أذنت لى فى اللعب حيث أشاء ومع من اختار من الرفاق.. فتردد الكاهن ملياً ثم قال فى يأس، وهو يطأطىء رأسه: لك يا بنى ما تريد!؟

قصـــة مصرية

«الطـــامع...»

لقد واتاه الحظ، ومشى اليه السعد، وحفلت حياته الجديدة بما تحفل به حياة رجل عظيم! لم يعد الشيخ «ياقوت» رجلا عادياً فى القرية، بل أضحى رجلا مرموقاً. فأنت ترى الجلوس فى آخر الطريق ينهضون على أقدامهم عند ما يبدو فى أوله فى جبة من الجوخ. وقفطان من السكروتة، وعمامة متقنة يبدو شاشها دائماً ناصعا مزهراً. وبين أنامله مسبحة من الكهرمان متألقة الحبات، وشفتاه لا تفتران عن تسبيح الخلاق القدير فتنيران وجهاً جميلا مشرباً بالحمرة.

وإن «منظرته لتحفل بالأضياف فى الشتاء وتذكو فى موقدها جمرات الأثل ويشرق من سقفها على الجالسين نور جميل يرسله مصباح فى «فانوس» من الزجاج الملون. وفيها يشيع صوته الحلو الحنون يردد آى القرآن أو فقرات الحديث، وأصوات الأضياف ترتفع بتلك الجملة الأبدية: صدق الله العظيم... صلى الله عليه وسلم!

فاذا ماحل الصيف إنتقل المجلس الى «المصطبة» المستندة الى واجهة الدار حيث يحلو السمر تحت ضوء القمر، وحيث جرت العادة أن تعقد حفلات الذكر والختمات، وحيث كان أصحاب الربابة والمزمار. ومنشدو أبى زيد. والقصاصون يجلسون فيطربون حلقة المستمعين من شيب وشبان، وسيدات جالسات، خلف الأبواب ووراء النوافذ.

لم تكن للشيخ ياقوت هذه المكانة فى أول الأمر. كان فى المبدأ مأذونا للقرية. فاذا ما كان يوم الجمعة واجتمع الناس فى المسجد وعظهم بلسان فصيح وكلمات زاجرات، وأراهم الطريق الى الجنة ورغبهم فيها، والطريق الى النار وحذرهم منها... فاذا ما انتهت الصلاة تقدم اليه الجمع يستفتيه فى أمور الدين والدنيا ويستلهمه النصح والارشاد.

ولقد اهم الشيخ ياقوت ضيق رزقه وقلة ماتجديه عليه وظيفته فتفتق ذهنه عن فكرة صائبة. وسرعان ماظهر فى القرية دكان مزين الجدران ترتفع فوق بابه لوحة كتب عليها «راجى عفو المنان، الشيخ ياقوت عثمان»!..

ونفقت تجارته، واقبل الناس عليه. فهم يجدون عنده مالا يجدون فى حانوت القرية الآخر. وسرعان ما أخذ الناس يتحدثون عن جودة بضائعه وطرافتها. ويطرون ما عنده من تمباك ودخان.

وسور مكتوبة ، وأوراد ، وتعاويذ تخاط فى الأحجبة فتقى الناس شر العين وكيد الحسود ! . . ولم ينس الشيخ أن يستحضر ألوانا مختلفة من المسهلات ، والبرشام فلم يعد يتكبد الممعود أو موجوع الرأس أو الأمعاء عناء الذهاب الى المدينة لالتماس هذه الاشياء .

كان صاحب الحانوت الآخر مستبداً بأهل القرية لايؤجل لهم ثمن مايشترون على رداءة بضائعه وشحه ، فلم يقو على منافسة الشيخ ياقوت فأدركه الافلاس . والحق أن الشيخ كان دمث الاخلاق من أرباب السياسة والكياسة . وكان يسخو فى البيع ويمهل فى الدفع ، وهو فضلا عن ذلك من حفظة القرآن فالشراء منه بركة ، والتمسح به وهو من أصحاب المراكز فيه نفع لامضرة . وهو يعطى المشترى المواظب من حين الى حين شيئا من بخور السيدة الذى أحضره من القاهرة .

وعند الدكان مقعدان طويلان تجدهما أبدا مشغولين بالجلوس من المشترين الذين يرغبون البقاء لاستماع الشيخ وهو يقرأ الجريدة ويقص عليهم الأخبار وما يحدث فى بلاد الكفار .

وقد كان اليهودى ينزل القرية بين الحين والحين يحمل بضائعه على كتفه ويصيح « شيت يابنات . مناديل . روايح . حراير أمشاط . مرايات يابنات . . . » . لكن هذا الصوت قد اختفى ونفض اليهودى حذاءه من تراب القرية ، فقد كرههم الشيخ ياقوت فى معاملته ، واستحضر لزوجته تلك البضائع . فكانت تبيعها فى المنزل بالسعر المعتدل المقسط ، وانتشر خبرها فى القرية فاصابت من الرزق اكثر مما يصيب الشيخ من حانوته ، وأخذ الشيخ يكثر من تسبيح الله وترديد اسمه والثناء عليه ، وابتدأت الحمرة تنتشر فى وجهه . .

ومضى الحول فاذا به يخرج على الناس بمشروع جديد ، فقد كبر عليه ان تظل القرية بلا كتاب ، فشمر عن ساعد الجد ، واشترى الخشب وكان فى صباه نجارا فلم يلبث أن سواه مقاعد يجلس عليها صبية « الكتاب » الذى افتتحه .

وكان « الكتاب » بجوار الدكان فى الطابق الأول من الدار فأخذ يوزع نشاطه بين العملين ويراوح بينهما فى المجهود . وكانت بضائع الحانوت تنفق سريعا ، فأن أولاد النجوع المجاورة صاروا يعودون فى المساء بعد الدرس بما يحتاج اليه ذويهم من بضائع الشيخ . فاذا ماكان الصباح وابتدأ الدرس واخذت عصا الشيخ ترقص فى يده . ذهبوا الى الدكان يحاولون الاكثار من ابتياع الحلوى وما اليها ابتغاء مرضاته حتى تقصر عنهم عصاه .

وأثمرت جهود الشيخ الجديدة فصارت القرية تفاخر بعدد من الصبية حفظوا القرآن . وذاعت شهرة الكتاب فوفد اليه ابناء الكفور القريبة يتتلمذون على الشيخ ومضت الأيام فأذا بكتاب الشيخ ياقوت من كتاتيب الاعانة التى تتقاضى تسعة جنيهات فى السنة ! . .

فتح الله عليه ابواب الرزق فصار يتاجر ، ويغامر ، ويكسب ، ويستأجر الأرض ويزرعها . وجعل يتغنى صباح مساء «وأما بنعمة ربك فحدث » غير أن هما دفينا كان يقلق الشيخ ويقض مضجعه ، فقد مضت خمس سنوات وزوجه لم تعقب له ولدا غير « حسان » . وهو رجل يطمع فى كثرة النسل ويريد أن يرى انجاله يرتعون فى هذا الرزق الواسع والخير العميم .

أما أن يمنى بقلة الذرية فقد كان شيئا ثقيلا على نفسه .كان الناس يتهامسون رثاء له واشفاقا . والأعداء يشمتون ويودون لو يخطف الموت حسانا فلايبقى للرجل من زينة الحياة غير المال ، والمال بلا بنين كالشجر بلا ثمر .

كلما مر بالشيخ ياقوت هذا الخاطر ارتاع وابتأس . وماذا يدعو الى الارتياع أكثر من شماتة الأعداء نار الحساد التى لا تجد لها وقوداً غير كارثة تلم به وبلاء يقع فيه ! . .

كان يفكر أن يتزوج بأخرى ، لكنه كان رجلا شهما ، تأبى رجولته أن يتزوج على أم حسان ، فيؤلم نفسها ، ويجزى إخلاصها وصبرها شر الجزاء . كان يحبها حبا خالصا ، ويجد فيها الزوجة الصالحة المطواع ، والمرأة الجميلة الصبوحة .

كانت أم السعد تشعر بهذا الخطر الذى يهددها وبأيدى السوء التى تدأب على إفساد حياتها الزوجية ووضع النار فى بيت هنائها ، فكانت تصبر على وشايات أم الشيخ وأخواته اللواتى امتلكتهن رغبة محرقة فى أن يتزوج الشيخ من بنت العمدة ، فقد وصل رجلهم الى الدرجة التى تؤهله الى نيل هذا الشرف . . .

كانت أم السعد تداريهن ، وتصبر على ما يصيبها منهن طمعا فى أن تظل وحدها حليلة زوجها . أما هن فقد غلون فى اضطهادها والأساءة اليها بعد أن عرفن موطن الضعف فيها ، ووقفن على تلك الغيرة المستترة خلف قلبها . وأضحت لهن أمة ضارعة ذليلة تفزع إذ يلوح لها شبح « الضرة » وتضع أصبعيها فى أذنيها حين تسمع كلمة الطلاق ، فقد كانت تعرف أنها سائرة الى أحد الطريقين .

صارت تنذر النذور وتستصرخ الأولياء ، وتذهب الى قبور الصالحين تستمد منها البركة . يأتى عليها الليل وينام القوم فتصعد الى السطح وتكشف رأسها وتسخر كل قوى روحها فى التوسل الى الله أن يرزقها ولداً آخر . وقد تسترسل فى بكائها وهى تتذكر آلام النهار ، والتعيير ، والكيد ، فلا تمسح دمعها حتى تظهر

نجمة الصبح فتعود لتنام عند قدمى زوجها .

فاذا كان شهر رمضان صامته من غير سحور وبذلت الاحسان من غير حساب .

وبلغ حسان العاشرة من عمره والأم لم تظفر بالأمنية ... ونفد صبر الزوج فخطب ابنة العمدة لنفسه .

وابتدأ البيت يمتلىء بالضوضاء ويستعد لأستقبال الأفراح والليالى الملاح . فكانت « أم السعد تنسل الى غرفتها كما ينسل الى وكره حيوان مضطهد مجروح . . . كانت تعيش من فكرها فى مأتم ، وكلما اقترب يوم العرس انقطع بين يديها خيط من خيوط الهناء ، حتى صارت تفتقد مسرات حياتها فلا تجد بين يديها إلا خرقة مهلهلة .

وماذا بقى لها بعد أن صارت المرأة المنبوذة ؟ ! كيف تطيق أن ترى المرأة التى تتوج بدلها بعد أن كان التاج لها ، تتخطر مزهوة مختالة يزرى جمالها الفتىء الجديد بجمالها الذى فقد الجدة والفتنة ! . .

لقد شادت هى كل شىء وتعبت فى كل شىء ، فاذا بامرأة غريبة تتسلم البضاعة وتأمر وتنهى ! ليتها لم تفعل شيئا . ليتها لم تدبر ولم تقتصد ! كانت تشقى فى حاضرها لتسعد بمستقبلها فاذا بالمستقبل يضيع وبالأمل يتحطم ! . .

وحسان العزيز ! إن امره ليدمى فؤادها . لقد اشترى له أبوه اثوابا جديدة بمناسبة قدوم العروس ، وأمرها أن تخيطها له ! إن ثياب الحداد أولى به فقد دالت دولته . ولن يدلل فيما بعد ! سيصبح ابن المرأة القديمة . . . وسيتحول قلب أبيه عنه الى أولئك الأطفال الصغار الذين طال اليهم اشتياقه . كيف تستطيع احتمال هذا ؟ انها لترسل بصرها فى المستقبل فترى ابنة العمدة جالسة فى رحبة الدار تخرج ثديها فخورة مباهية لترضع طفلها . كأنها تتعمد اغاظتها والحط من شأنها ! وستنكس هى بصرها خجلا وسيندى جبينها خزيا ! إن ثديها العاطل المحروم ليحن للارضاع ! بل انه ليهتز شوقا الى طفل . وهى تخرجه فى وحدتها وتتأمله بحسرة حرى وعين أسيفة . وتعصره لعله يبض له بقطرة تكون نذيرا بالحمل ! . . فلا تظفر بغير الخيبة ، ولا يلوح على وجهها غير ظل ابتسامة كسيرة مهزومة . . .

مضى شهر على الزواج الجديد . . . وكانت أم السعد قد سئلت أن تخلى غرفتها للعروس ، ووعدها زوجها أن يرد الغرفة لها بعد أيام ، لكنه حنث فى وعده ، وتركها تقيم مع أوعية اللبن والجبن فى هذه الغرفة القائمة فوق السطح . . . وهى الآن جالسة تخطط فى التراب وتحدق فيما تخط بعين ذاهلة . وقد مسح الحزن عن وجهها ضياءه واشراقه . ولم يبق من محياها الجميل غير معارف امرأة محطمة ، ناقمة ، متجددة السخط والغضب .

وكيف لايتجدد سخطها وغضبها ! . . ها هى ضوضاء الدار تصعد الى أذنيها فتنبئها أن القوم لاهون بينا هى وحدها تتعذب . والدخان يرتفع من أسفل فيضايقها ويؤذى رئتيها ويحمل الى خاطرها صورة « الوليمة » ، ووجه زوجها وهو يضحك فى وجه العروس ويداعبها .

واذا هى تعض أناملها ، حانت منها التفاتة فرأت أثواب حسان البيضاء التى غسلتها فى الصباح تخفق تحت أشعة الشمس ، فقامت اليها متثاقلة وجمعتها . وأخذت تخيط ما بها من ثقوب وفتوق .

وظلت تنتظر عودته من الكتاب لكنه لم يعد . ثم عضها الجوع فقامت الى الطعام لكنها لم تصب منه غير قليل ثم عافته .

وصعد اليها حسان وفى حجره الوان من الحلوى ، وحدثها أنه تناول الطعام مع العروس . . . وثارت نفس الأم ، فلطمته ودفعته بعيدا ، فتبعثرت حلواه وطفق يبكى . لكن حنانها عاودها فذهبت اليه ، ومسحت دمعه وأجلسته فى حجرها ، وسألته أن يسمعها ماحفظ فى يومه . فأنشأ الصبى يرتل ، وأسارير الأم تنبسط كأن شعاعا من العزاء يتسلل الى قلبها ، ويبدد شيئا من ظلمته الحالكة

وأخذه النوم فألقى رأسه الصغير الى كتفها ، وغلبها الحنان فتناولت كفه وأدنتها من شفتيها . لكنها عافت اليد الصغيرة عند مارأت عليها لون « الحناء » الذى أباحت جدة الصبى لنفسها أن تخضب به يدى حفيدها . فحفل صدرها بالغيظ ، وملأ الحقد قلبها وملأ الدمع عينيها . . .

وتبكى الأم بحرقة . ويستيقظ الصبى مرتاعا ، ويملأ الدمع عينيه البريئتين وهو يسأل أمه أن تكف ، فتحاول لكن أساها يغلبها ، فتعتذر اليه بأن هناك نارا تسرى فى أحشائها ، وتعتلج فى صدرها . وتحدثه وهى تحدق فى وجهه بجزع وقد وقفت على شفتيها ابتسامة مشلولة : أنها لن تعيش طويلا . لأن تلك النار لم تبق شيئا . .

من هذا اليوم سقطت أم حسان مريضة وتضافرت عليها أوجاع الجسد والروح . فأخذت تتقهقر من ميدان الحياة على عجل .

أما الشيخ ياقوت فيأبى أن يدعو الطبيب ويزعم أنه خبير بدهاء النساء ، ويتهم زوجته بانها تتمارض ، ويهددها بأن عصاه كفيلة بمداواة الغيرة التى تأكل قلبها ، وينذرها بأنه لن يسمح لها أن تجعل بيته جحيما ، وأن كلمة «الطلاق» مختبئة خلف شفتيه يلفظها أن سولت

لها نفسها الأمارة بالسوء إعادة هذه اللعبة المفضوحة للتنصل من الخدمة!..

وتنسحق روح أم حسان تحت عبء هذه الكلمات كما تنسحق قطعة الفخار تحت ضربات المطرقة . وكأنها تؤثر الانضايق قرينها فتغادر الحياة بعد أيام قلائل !..

كانت هناك نفس واحدة حزينة لفراقها هى نفس حسان، لكن حزنه انجاب سريعاً كغمام الربيع . . .

لم يطل عهد حسان بالحلوى والتدليل، وتقدمت به الأيام فاذا به يلطم ويزجر ! وتنكر له الجميع . وقوى إحساسه باليتم . واكتأبت روحه الظمأى للحنان فذبل كما يذبل لحظ النرجس من كثرة العطش. وفقد النصير . ولم يعد يملك إلا أن يطوف بمقبرة القرية يرمق منزل أمه فيها ويود لو تناديه اليها ليتيم معها

أما الشيخ ياقوت فقد اطمأن الى الثروة التى أجتمعت له فأغلق الدكان وأهمل الكتاب ، وركن الى حياة مترفة ، لاهية ، موزعة بين أحضان الزوجة ودوار العمدة . . .

ومضت الأعوام والزوجة لا تنجب ولداً ولا بنتاً، وثروة الشيخ تتبدد فى الانفاق على القابلات ، والزلفى الى أصحاب الكرامات . وكبر على ابنة العمدة ان تبقى عاقرا ، وشعرت أن « ام السعد » وهى فى القبر قد غلبتها وهى فى الحياة وخالت ان روح المرأه الشامتة تطوف بها ، وتسخر منها ! . .

وذهبت تنشد غاية تفنى فيها غيظها فلم تجد أمامها غير حسان ، فانشأت تضطهده وتسخره ، وتنكل به

ويستنصر حسان الأب فيخذله أبوه ، وينصر المرأه الجميلة ، وتضيق الدنيا فى عينى الفتى ويطلب النجاة لنفسه فيهجر القرية ، وتمضى الاعوام ولكن الأبن المفقود لا يعود . . . وتستيقظ روح الشيخ ياقوت فلا يجد بين يديه أطفالا يمرحون ويصخبون ، ويبلغ به الاسى فيوشك أن ينادى «حسانا» ليعينه على الحياة لكن الكلمه تختنق فوق شفتيه . . .

وضاعت الثروة كما ضاع الشباب وأضحى رجلا مقلا ، فلم تعد هناك حلقات ذكر ولا حفلات سمر ، وانما كانت أجنحة الخيبة ترفرف صامته حول البيت .

فقد الرجل مركزه ، فلم يعد الوجه محمرا ، ولا الشاش مزهرا ، ولا الجبة زاهية . . . ولم يعد الناس يقفون عند ما يبدو فى أول الطريق ، بل صاروا يغمغمون بما يشبه التهكم : «مسكين . سى الشيخ » ! . .

وكان هذا ينال من نفس الشيخ ، ويدمى فؤاده ، فلا يكاد يقطع الطريق حتى يتهالك على عتبة الدار .

ويطول به الجلوس وهو يتذكر الماضى ويخطط فى التراب ويرسل بصره نحو « مقبرة القرية » . . .؟

يوسف جوهر

بليـــــاس ومليزاند

للفيلسوف البلجيكى موريس ماترلنك
ترجمة الدكتور حسن صادق

مليزاند — إن شكلى بشع فى هذا الموقف

بلياس — أوه مليزاند ! . . . ما أجملك ! . . . ما أروع منظرك فى مكانك هذا ! . . . أنحن . . . أنحن . . . دعينى أقترب منك أكثر من ذلك

مليزاند — لا أستطيع أن أقترب منك أكثر مما فعلت . . . هذا آخر ما أستطيع من الانحناء

بلياس — ليس فى مقدورى أن أرفع نفسى إليك أكثر مما ترين . . . أعطنى على الأقل يدك فى هذا المساء . . . قبل ذهابى . . . إنى راحل غداً . . .

مليزاند — لا . لا . لا

بلياس — نعم . نعم . إنى راحل غداً . . . أعطنى يدك . . . يدك الصغيرة أضعها على شفتى

مليزاند — لا أجيب سؤلك اذا أصررت على الرحيل

بلياس — أعطنى . . . أعطنى . . .

مليزاند — أعدلت عن السفر ؟

بلياس — سأنتظر . . . سأنتظر . . .

مليزاند — أرى وردة فى جوف الظلام

بلياس — أين هى؟ . . . إنى لا أرى الا أغصان شجرة الصفصاف التى تفوق فى علوها البرج

بلياس — ليست بوردة . . . إنى أذهب لارى حقيقتها بعد هنيهة ، ولكن أعطنى يدك . . . يدك أولا . . .

مليزاند — هاهى ذى . ألا تراها ؟ . . . لا أستطيع أن أنحنى أكثر من ذلك

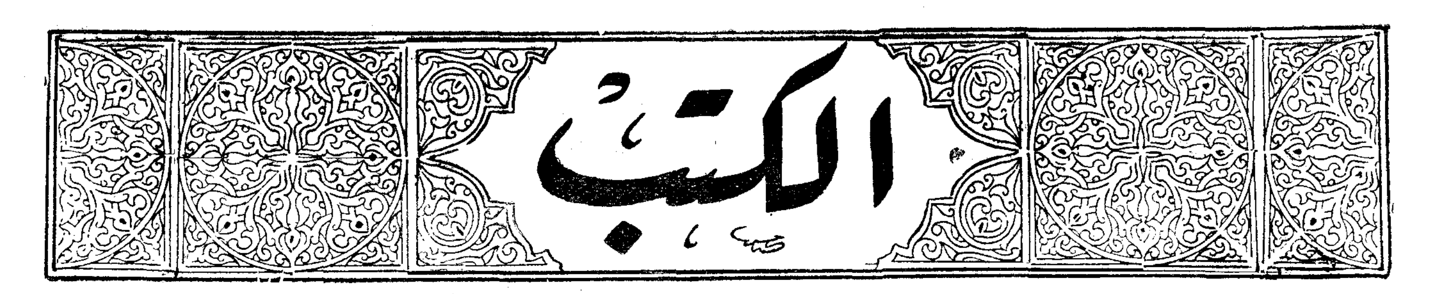
بلياس — شفتاى تعجزان عن بلوغ يدك

مليزاند — لا أستطيع أن أنحنى أكثر من ذلك . . . كدت أسقط . . . أوه ! أوه ! شعرى ، أمتهدل على حائط البرج

(يسقط شعرها دفعة واحدة وهى منحة ويقفز بلياس)

بلياس — أوه ! ماهذا ؟ . . شعرك يسعى الى كل شعرك يامليزاند سقط من البرج ! . . . انى أقبض عليه بيدى . . . واطبق

« البقية على صفحة ٤٢ »



عودة الروح

— ٢ —

ما أظن اننا نغالى اذا اعتبرنا قصة « عودة الروح » للاستاذ توفيق الحكيم مؤلف « أهل الكهف » القصة المصرية الاولى فى أدبنا المصرى الصميم . بل هى الحقيقة لانعددها ولا نجد مفرا من الاعتراف بها ، فعودة الروح مصرية بأبطالها ، بموضوعها ، بما فيها من عادات وطباع وخلق مصرية صميمة ، بذلك الطابع المصرى الصميم الذى يطالعك فى كل صفحة منها بل فى كل سطر وكل كلمة تضمنتها . وانك لتحس إذ تقرأ هذه القصة وتمضى فى القراءة وتمضى فيها انك تعيش فى جو تألفه ، وبين قوم سرعان ما تشعر بالرابطة القوية التى تربطك بهم ، رابطة المصرية المتينة التى تحببهم اليك وتجعلك تحسبهم أحياء يتحدثون ويتحركون ، لاأبطال قصة من صنع الخيال من ورائهم المؤلف يفتعل لهم المواقف ، ويفتعل لهم الحديث والحركة ، وانك لتهم أحيانا ان تشترك معهم فى الحوار وتشاطرهم حياتهم ودنياهم الزاخرة بشتى الانفعالات المليئة بألوان من الشقاء واليأس حينا ، والسعادة والامل حينا آخر

وهذه المصرية الصحيحة ، وهذه الحياة القوية الفياضة ، هما سمة هذه القصة وطابعها البارز ، وهما قد جعلاها فى الطليعة بين كل ما كتب من القصص المصرى منذ عرف أدبنا القصة الى اليوم

يروعك من هذه القصة لأول وهلة دقة تصوير شخصياتها على اختلاف كبير بينهم فى النشأة والعلم والاستعداد الشخصى ، وانك لواجد فى كل منهم شخصية تخالف الاخرى وتفترق عنها فى الكثير والقليل ، تجمعهم أحيانا وحدة الحادثة ، ولكن ما أشد تباينهم تجاهها فى الشعور والحس والادراك الصحيح ، وما أشد هذا التباين فى الاندماج فى الحياة والانفعال بمختلف ما تأتى به من خير أو شر ، من رجاء أو خيبة . وتكاد تحس فيهم جميعا طيبة القلب ، وسذاجة الفطرة ، والتبسط فى الحياة ، وتقبل ما تأتى به صروفها من ألم أو أمل ، فى رضى واستسلام ، أو فى غضب هو بالرضى اشبه ، ولكن كل نسيج وحده ، وكل له بعد ذلك خلقه البارز وطبعه المغاير وشخصيته الفذة التى تترسمها ولا تكاد تخفى على ناظريك طوال القصة فى معالمها الكبرى واسطرها الواضحة ، بل فى تفاصيلها الدقيقة وما بين هذه الاسطر ، وما بين تضاعيف القصة من حوادث وصروف

كلهم يحب وكلهم يعمر بالأمل قلبه حتى « زنوبة » هذه العانس التى فاتها سن الزواج فما تجد حيلة الا الاستعانة بالسحر والسحرة فى خفاء وحذر ، خشية أن يعلم أهلها عليها أمراً لا يناسب الوقار والاحتشام ، وما يجب أن تتصف به من الرزانة والأدب ، كلهم يحب حتى « مبروك » الخادم أو من هو كالخادم ، وما أشبهه بزنوبة فى بساطة العقل أو قل فى تفاهته ، وأنه ليسرع بشراء « نظارة » لتتم له الصورة التى تخيلتها له الفتاة التى أحبها الجميع ، وساهم هو فى حبها ولو بقسط ضئيل وهذا « محسن » بطلنا الاول ، الطالب فى مستهل دراسته الثانوية ، الناشىء فى مستهل شبابه ، وفى أول خطى العمر الغض ، ما أجدره بالحب وأخلق بقلبه الفتى أن يفتح مصراعيه لاول طارق وأن يصيبه السهم الاول فيدميه ويجرحه جرح الابد . ذلك هو الجرح الاول الذى لايفتأ على الايام يؤلم ويدمى . « محسن » يحب ولكن على استحياء وخجل . وفى صمت وكتمان . فاذا لمح بادرة أمل راح والدنيا لاتتسع لنشوته . واذا داخله اليأس أفعم نفسه وروحه وضاقت الدنيا فى عينيه ، لايعرف مداخل الرجل الى قلب المرأة ، ولا يدرى كيف يغزو الغزاة هذا الحصن ويحسنون الطرق على أبوابه حتى تتفتح لهم عن جنات ورياض من الامل الباسم والسعادة الشاملة ، وما أروع هذا الاستسلام يطغى على قلبه ، وهذا الالم يحز فى قرارة نفسه ، وتجده فى ضريح السيدة يمسك بقضبان الضريح النحاسية ولا تنفرج شفتاه الا عن هذه الصرخة المكتومة والضراعة اليائسة وملؤها الرجاء والايمان المطلق « ياسيدة زينب ! » ثم يطفر الدمع من عينيه ويبكى ماشاء الله له أن يبكى ، وما شاء له الحب اليائس والنفس الحزينة ، والامل المقطوع . وما أدرى كيف كان يمكن ان يشعرك المؤلف بكل مايختلج فى صدر محسن من ألم محض وأسى قتال بأكثر من أن ينطقه بهذا ولا شىء غيره . فتتضمن الجملة القصيرة أو هذه المفاجأة الرائعة إذا أردت ، كل ما تسعه المخيلة القوية الوثابة من اليأس والرجاء . والامل والفشل ، ثم الايمان الذى يعمر القلب ويتغلغل الى أعمق نواحيه وأغواره

ولو شئت أن أضرب لك الامثال على قوة تصوير المؤلف لمواقف أبطال قصته، وعلى دقته في الصور التي يعرضها عليك لشتى ضروب انفعالات النفس الانسانية، وعلى مهارته الحاذقة في استخلاص الصميم الرائع من حقائق الحياة الخالدة، وتعمقه في تحليل كل ذلك تحليلا صادقاً كل الصدق، دقيقاً بارعاً الى ابعد حدود الدقة والبراعة، لو شئت أن أضرب لك مثلا على هذا لما تخيرت الا هـذا الموقف. وأنك إذ تسمع «محسن» يقول هاتين الكلمتين في ذلك الوقت، تبرز أمام عينيك فجأة صورة ذلك المنكوب الحزين، ذلك اليائس كل اليأس، المكروب كل الكرب، ذلك الذي تألبت عليه النوب واصطلحت عليه الارزاء، فيرفع رأسه في هدوء وتلمح على وجهه مايروعك من آيات القنوط وتحس ما يجيش به صدره من الانفعالات ومختلف عوامل النفس الثائرة كأنها الاتون يصهر الحديد أو البركان يقذف بالحمم، ثم لا تسمع منه الا كلمة «يا رب ...» وعليها مسحة الايمان الذى لاحد له ولا وصف يوصف به، وأنك لمأخوذ بسحر هذه الكلمة، مأخوذ بروعتها في بساطتها وقصرها، وكأنها تعويذة فيها من الروعة والجلال ما يأخذ على الفكر مسالك الفكر، ولو استمعت الى شكوى الناس طرا من عهد آدم الى اليوم لما كان لذلك في نفسك بعض هذا التأثير أو بعض هـذا السحر المبين

وتلك ناحية من نواحى هذا الكاتب القدير توفيق الحكيم لا تخطئها في «اهل الكهف» كما انك لا تخطئها في «عودة الروح»

وأحب لك أن تقرأ الفصل الثالث عشر من القصة عند وداع محسن لسنية فهو من أحسن فصول القصة، وهذا الموقف بين الأثنين من أروع المواقف وأصدقها وأدقها تصويرا، على انى لا أحب أن تفهم أنى أفضل مشهدا في القصة على مشهد ولا فصلا فيها على فصل، فهى كلها قوية رائعة، وفيها كلها تلمس قوة الحبكة ودقة التصوير ومهارة الكاتب وخياله الخصب المؤاتى، وذلك التلوين العجيب لشخصيات افراد القصة في مواقفهم العديدة المتباينة، ودونك الفصل الرابع والثلاثين عند ما يتجه نظر سنية لقهوة الحاج شحاته وتتأمل طويلا في مصطفى وما يختلج في قلبها من الانفعالات المختلفة المتضاربة، فليس أبلغ من قوة التحليل في هـــذا الفصل لقلب العذراء الخلى عند مايداخله الحب وينفعل بالجو الذى يحيطه في أول خطاه في هذه التجربة القاسية، فهو راض حينا، ساخط حينا آخر تتجاذبه عوامل الأمل واليأس، وتلمح كل هذا في الحركة المضطربة، وفي المفاجاة التى لا تترجم عنها الالفاظ، ولكن دقات القلب ونظرات العين ووجوم الوجه، وآية هذا الفصل اسطره الاخيرة التى تقدم لك لوحة من الفن بارعة كل البراعة صادقة كل الصدق، دقيقة أبلغ الدقة.

وبرغمى ان أترك حديث هذه الناحية من القصة لأتحدث اليك عن ناحية اخرى لا تقل عنها بروزا وقوة: وفيها الفكرة الكبرى التى أرادها المؤلف من كتابة قصته وعناها بتسمية القصة «عودة الروح» ودعك من ناحية تمجيده الفلاح، أو بمعنى آخر للمصرى الصميم، وانها لصفحة ناصعة خالدة من صفحات هذه القصة وانك لتحس في تضاعيفها حرارة المصرى الصميم يمجد مصر وطنه ويمجد المصرى ابن وطنه، ودعك من تلك الصور الصادقة واللوحات الفنية الرائعة عن الريف وأهل الريف وعن حياتهم وعاداتهم والاتحاد القوى المتين بين افرادهم، وروح الجماعة التى تبرز في شخصياتهم واضحة منيرة، دعك من هذا ودونك فاسمع ما يقوله أوربى عن مصر وعن شعبها في الفصل الخامس والعشرين واقرأ هذه الفقرات وارجع الى الفصل المشار اليه اذا أردت أن تقرأها كاملة

«ان هذا الشعب الذى نحسبه جاهلا ليعلم أشياء كثيرة، ولكنه يعلمها بقلبه لا بعقله .... جيء بفلاح من هؤلاء واخرج قلبه تجد فيه رواسب عشرة آلاف سنة من تجاريب ومعرفة رسب بعضها فوق بعض وهو لا يدرى .....»

«قوة اوربا الوحيدة هى في العقل تلك الآلة المحدودة التى يجب ان نملأها نحن بأرادتنا، أما قوة مصر ففى القلب الذى لاقاع له»

«ان هذا الشعب المصرى الحالى مازال محتفظا بتلك الروح... روح المعبد... ان القوة كامنة في هذا الشعب ولا ينقصه الاشيء واحد... المعبود... نعم ينقصه ذلك الرجل منه، الذى تتمثل فيه كل عواطفه وأمانيه ويكون له رمز الغاية .... عند ذاك لا تعجب لهذا الشعب المتماسك المتجانس المستعذب والمستعد للتضحية اذا أتى بمعجزة أخرى غير الاهرام»

فاذا انتقلنا الى الفصل الثالث والاربعين قرأنا «في شهر مارس.. مبدأ الربيع.. فصل الخلق والبحث والحياة.. أخضرت الأشجار بورق جديد وحبلت وحملت أغصانها الاثمار..

كذلك مصر أيضاً.. حبلت، وحملت في بطنها مولوداً هائلا. وهاهى مصر التى نامت قرونا تنهض على أقدامها في يوم واحد. لانها كانت تنتظر ابنها المعبود ورمز آلامها وآمالها المدفونة يبعث من جديد.. وبعث هذا المعبود من صلب الفلاح»

وتبرز أمامك فجأة صورة رائعة لثورة مارس سنة ١٩١٩، وامض في القراءة

« ما غابت شمس ذلك النهار حتى أمست مصر كتلة من نار.
وإذا أربعة عشر مليونا من الانفس لا تفكر الا فى شىء واحد.
« الرجل الذى يعبر عن إحساسها .. والذى نهض يطالب بحقها فى الحرية والحياة ، قد أخذ وسجن ونفى فى جزيرة وسط البحار »

وتبرز أمامك صورة رائعة للمولود الهائل ... للمعبود رمز الآلام والآمال . للمعبود الذى بعث من صلب الفلاح .. لسعد

« كذلك أوزوريس الذى نزل يصلح أرض مصر ويعطيها الحياة والنور أخذ وسجن فى صندوق ونفى مقطعا أربا فى أعماق البحار ...

هذه مصر ، وهذه ثورتها أومعجزتها الثانية بعد الاهرام. وهذا سعد رمز العبود والقدس ، بعض مايبرزه لك توفيق الحكيم إبرازاً قوياً واضحا فتكاد يستخفك مجد تليد وتاريخ مجيد فتصيح وتهتف بحياة مصر ، الوطن العزيز المفدى ، وتكاد من فرط ما يشملك من الفخار والعزة ان تدمى هذه الصفحات المقدسة تقبيلا واجلالا ، وهاك فاسمع مايقول المؤلف عن لسان ذلك الاوربى ، وان اربعة عشر مليونا ليرددون هذه الجملة وانها لتصبح وتمسى نشيدهم المختار ومثلهم الاعلى

« بلد أتت فى فجر الانسانية بمعجزة الاهرام لن تعجز عن الأتيان بمعجزة أخرى ... او معجزات !! بلد يزعمون انها ميتة منذ قرون ، ولا يرون قلبها العظيم بارزا نحو السماء من بين رمال الجيزة! لقد صنعت مصر قلبها بيدها ليعيش الأبد ....

أجل ... لقد عاشت مصر الأبد ، وتخطت القرون والعالم يظنها هامدة ميتة ، والنار كامنة تحت الرماد ، وما هى الا نفخة أو شبهها حتى ظهرت النار متأججة ، تصهر الحديد وتكوى الجباه ، وحتى قام ذلك الفلاح المستكين واعلن غضبته للعالم أجمع والتفت العالم وأنصتت الدنيا

وهذا ابن لمصر بار ، هذا مصرى صميم ، هذا توفيق الحكيم جاء فسجل مجد تلك الثورة وأشاد بذكرها

وبعد ، فلنذكر للمؤلف الفاضل هذا الجهد البارز ، وهذا العمل الخالد ولنعترف مخلصين بما بذل وماأوتى من مقدرة فائقة واستعداد هو مبعث التقدير والاجلال ؟

محمد على حماد

« بقية المنشور على صفحة ٣٩ »

فمى ... وألف به ذراعى وعنقى ... لن أفتح يدى الليلة ...

مليزاند — خل سبيله ... أطلق سراحه ... كدت تسبب لى السقوط !

بلياس — كلا . كلا . لم أر قط شعرا مثل شعرك يامليزاند انظرى ! انظرى ! انه يأتينى من عل ويغمرنى الى القلب .. .لقد بلغ ركبتى ... انه رائع عذب ... عذب كأنه هبط على من السماء لم أعد أرى السماء خلاله . أترين لم يعد فى مقدور يدى القبض عليه .. أمتدت شعرات منه حتى بلغت أغصان الصفصاف ... انه حى فى يدى كالأطيار .. انه يحبنى ... يحبنى أحسن منك الف مرة !

(يتبع)

طبعت بمطبعة فاروق ٢٨ شارع المدابغ